كوستي بندلي

مدخل الى العقيدة المسيحية

منشورات النور
١٩٦٧

طبع باذن صاحب السيادة الياس متروبوليت طرابلس والكورة وتوابعهما

مقدمة

تعليمات لاستخدام هذا الكتاب

غاية الأسئلة الواردة في آخر كل فصل او باب ان تكون مواداً لحوار بين المدرّس والطلاب يتدرج هؤلاء من خلاله الى اكتشاف المعلومات التي تقدم لهم . لذا ينبغي ان يسبق هذا الحوار عرض الدرس ، فيأتي العرض عند ذاك منسقا ومكملا الافكار التي تم الوصول اليها بمجهود مشترك . وغني عن الاشارة ان صيغة الأسئلة ليست نهائية البتة ، انما يُترك للمدرّس تعديلها او غض النظر عن بعض الأسئلة او اضافة اخرى حسب الحاجة .

والكثير من الأسئلة يعود بالطلاب الى الكتاب المقدس ، ذلك ان العقيدة اذا لم تُرد دوماً الى مصدرها الحيّ الا وهو كلمة الله تتعرض للجفاف والتحول الى رياضة عقلية جوفـاء . لذا يُستحسن ان يكون مع كـل طالب اثناء الـدرس نسخة من العهد الجـديد . وهكذا يعتاد التلاميذ على تفتيش الكتاب المقدس بحثا عن هذا المقطع او تلك الآية فتتكون الفة بينهم وبينه . اما العهد القديم فتكون نسخة منه على الأقل مع المدرّس الذي يضعه بالتناوب بين يدي هذا الطالب او ذاك للتفتيش عن آية او مقطع وتلاوتهما . وقد الحقت بمعظم الفصول نصوص ووثائق يمكن ان تصبح فرصة للتأمل والحوار .

المؤلف

الفصل الأول

الأيمان بالله الخالق

«اومن باله واحد ، آب ، ضابط الكل ، خالق السماء والأرض ، كل ما يرى وما لا يرى»

في الايمان

تحديد الايمان

« الايمان هو قيام المرجوات فينا وبرهان غير المنظورات » (الرسالة الى العبرانيين ١١ : ١) انه اذاً ما يجعلنا ثابتين في الرجاء ومتيقنين بما هو غير منظور .

الله غير منظور

الله ، موضوع الايمان الاساسي ، هو غير منظور ، وهذا يعني ليس انه لا يُرى بالحواس وحسب ولكن ايضا انه لا يُدرك بالعقل .

لا يمكن للعقل ان يدرك الله لأنه لو ادركه لاستوعبه وحواه ، ولكن المحدود لا يمكنه ان يسع غير المحدود ، نقطة الماء لا يمكنها ان تستوعب البحر . العقل لا يمكنه ان يحوي ويحصر الله لان الله مصدر العقل نفسه . كما ان العين عاجزة عن الشخوص الى الشمس لان نورها يبهرها ، هكذا العقل عاجز عن ادراك الله . « الله ساكن في النور الذي لا يدنى منه » . (١تيموثاوس ٦ : ١٦)

المعقول اذاً ان لا يدرك العقل الله ، لانه لو ادركه لما كان الله الها بل كائنا في مستوى العقل . لا يمكن لله ان يكون الها الا اذا كان فائقاً كل ادراك .

الله يكشف نفسه لنا

لا يمكنني اذاً أن اكتشف الله من تلقاء ذاتي لانه يفوق ادراكي .

ولكن الله نفسه اراد ان يكشف نفسه لي . ذلك لانه يحبني مجانا دون أي استحقاق من قبلي . والمحبة تدفع المحب ان يكشف ذاته للمحبوب .

ولكن كيف يكشف الله ذاته لنا ؟ بواسطتين اساسيتين :

ا – من خلال الخليقة

ب – بالوحي الالهي

اسئلة

١ – كيف يحدد الإيمان ؟ (أنظر عبرانيين ١١ ، ١)

٢ – هل من المعقول أن يدرك العقل المحدود الله غير المحدود ؟

٣ – ماذا يدفعني إلى كشف ذاتي لإنسان آخر ؟ لماذا يريد الله أن يكشف ذاته لنا ؟



اللّه يكشف نفسه لنا

الله يكشف ذاته لنا من خلال الخليقة

لقد كتب الرسول بولس : « ان ما قد يُعرف عن الله واضح للناس ، اذ أن الله هو نفسه قد أوضحه لهم . فان صفاته غير المنظورة ، ولاسيما قدرته الازلية والوهته ، تُبصَر منذ خلق العالم ، مدركة بمبروءاته » (رومية ١ : ١٩ و ٢٠) . فالخليقة كلها تحمل اثر الله كما ان التمثال يحمل اثر النحات الذي صنعه . انها كتاب نقرأ من بين سطوره عظمة الله وحكمته وجماله . انها تهجئة لله تحدثنا عنه وتشير اليه . لهذا انشدت المزامير : « السموات تذيع مجد الله والفلك يخبر باعمال يديه » (مز ١٨ : ٢) . فلنستعرض بعض آثار الله في الكون وفي الانسان :

أ ـ ارتباط كل ما في الكون باسباب :

كل ما في هذا الكون مرتبط باسباب اوجدته . اذاً لا شيء في هذا الكون موجود بحد ذاته ، اذ لولا الأسباب التي اوجدته لما وجد . لا شيء اذاً في الكون موجود بالضرورة ، او كما يقول الفلاسفة واجب الوجود . كل ما في الكون ممكن الوجود ، لا يوجد الا بفعل آخر . ولكن ما يصح في جزئيات الكون يصح ايضاً في الكون ككل . ذلك انه لا يعقل ان يكون كل عنصر من عناصر الكون ممكن الوجود ، اما مجموعة هذه العناصر فواجبة الوجود . الكون اذاً ممكن الوجود لانه مجموعة عناصر كلها ممكنة الوجود . واذا كان ممكن الوجود ، فمعناه انه ليس موجوداً بحد ذاته بل بفعل آخر . اذاً يستدعي الكون سببا خارجاً عنه . وهذا السبب الخارج

عن الكون ندعوه الله . ولنأخذ الآن مثلا يوضح ما قلناه :

اذا أخذنا حيواناً وتساءلنا : لماذا هذا الحيوان حي ؟ ما سبب استمراره في الوجود ؟ رأينا أن لذلك اسبابا متعددة منها المواد الغذائية التي تحويها الاطعمة . ولكن اذا تساءلنا من أين تأتي تلك المواد الغذائية التي هي سبب استمرار الحيوان في الوجود رأينا ان لها بدورها اسباباً . فمثلا المواد السكرية ، وهي التي تحرك جسم الحيوان وتوّلد النشاط فيه، لا يمكن ان تأتي في النهاية الا من النباتات. وهنا نتابع تساؤلنا فنفتش عن سبب وجود هذه المواد السكريةفي النباتات ، فيتضح لنا انها تتكون من اتحاد الكربون بالمواد الكيماوية التي تمتصها النباتات من الارض بواسطة جذورها . وهنا نتساءل ما هو سبب وجود الكربون في النباتات . فيجيب العلم انه يأتي من تحليل الحامض الكربوني او ثاني اوكسيد الكربون الموجود في الهواء : ولكن ما هي علة هذا التحليل ؟ انه يتم بفعل مادة الكلوروفيل الموجودة في النباتات . ولكن ماهو سبب فاعلية الكلوروفيل على ثاني اوكسيد الكربون ؟ هنا يظهر البحث العلمي ان فاعلية الكلوروفيل ناتجة عن الطاقة التي تستمدها من الشمس . فنتساءل : ما هي علة الطاقة الشمسية هذه ؟ فتجيبنا أحدى النظريات العلمية انها ناتجة عن تفكيك ذرات الهيدروجين في الشمس . وهنا لابد للعقل ان يتساءل عن السبب الذي يحدث هذا التفكيك وهذا السبب يستدعي بدوره سبباً آخراً وهلم جرا .

وهكذا حيثما انتقلنا في هذا الكون نجد سلاسل مرتبطة حلقاتها ارتباطاً متيناً . وكأن الكون آلة مركبة من دواليب كثيرة يحرك أحدها الآخر . فكل من هذه الدواليب يستمد حركته من دولاب آخر . غاية العلم ان يكتشف دوما اسبابا جديدة اي دواليب جديدة وهكذا يفسر لنا الكون ولكن تفسيره ليس بنهائي . لان السؤال

النهائي ليس هو ما هي الدواليب وما هو عددها ولكن ما هو سبب حركة الآلة كلها . ذلك لأنه مهما كثر عدد الدواليب ، وحتى لو افترضنا ان هذا العدد غير متناه ، فهذا لا يمنع ان تكون حركة الآلة مستمدة في النهاية من محرك اول . فاذا الغينا هذا المحرك الاول توقفت الآلة حتما لان الدواليب ، مهما تعددت ، تصبح بدونه عاجزة عن نقل اية حركة .

هذا المصدر الأول الذي تستمد منه كل الاسباب فاعليتها ، كما تستمد الدواليب كلها حركتها من المحرك الاول ، هو الله . وكما ان الآلة تستمد **باستمرار** وفي كل لحظة حركة دواليبها من المحرك الأول ، هكذا ليس صحيحاً ان الكون استمد وجوده في لحظة معينة من الله ثم اصبح موجوداً بذاته ، ولكنه لا يقوم الا على الله ، ان وجوده مستمد في كل لحظة ممن هو وحده واجب الوجود .

ب ـ نظام الكون :

في الكون نظام وترتيب يبدو لنا مثلا اذا تأملنا الفلك والجسم الانساني او غرائز الحيوانات . يشير هذا النظام الى وجود حكمة فائقة تتجلى في الكون وتسيره .

الفلك :

فالنظام الشمسي مثلا ، المكوّن من الشمس ومن السيارات التي تدور حولها ، يسير بموجب قواعد رياضية دقيقة بيّنها الفلكي الشهير كيبلر . هذه النواميس لها من الدقة والثبات ما يخوّل علماء الفلك ان يعيّنوا بالتدقيق الزمن الذي سوف يحدث فيه خسوف وذلك قبل حصوله بالف سنة .

الجسم الانساني :

ولنأخذ مثلين عن النظام البديع الذي يسود الجسم الانساني . اولهما اشراف الكبد على نسبة مادة الـ glucose في الدم. هذه المادة

الضرورية للحياة ترد الى المجرى الدموي بغزارة عند تناول الطعام . ولكن الكبد واقف لها بالمرصاد يلتقطها عند خروجها من الامعاء كأنه مركز جمركي . فيخزن منها كل ما يفيض عن حاجات الجسم الحاضرة في خلاياه التي يبلغ عددها اكثر من ثلاثمائة وخمسين ملياراً . هذه الخلايا هي بمثابة مصانع كيماوية نشيطة تحول الـ glucose الى مادة غير قابلة للأستهلاك هي الـglycogène. هذه المؤونة بدورها تحول من جديد الى glucose وفقا لاحتياج الجسم وتفرز في المجرى الدموي ، حتى ان نسبة الـ glucose في الدم تبقى ثابتة (بمعدل غرام في الليتر الواحد) طيلة الحياة .

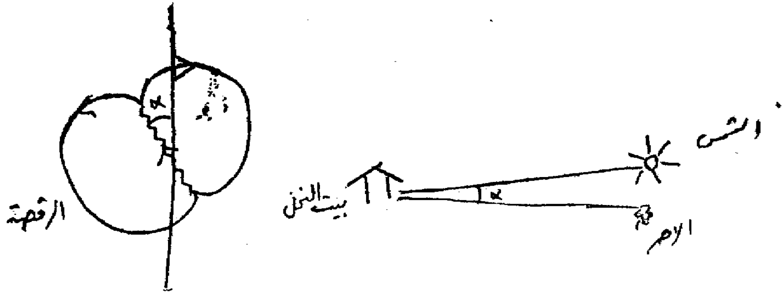
اما المثل الثاني فهو تكوين الجنين . المعلوم ان الجنين لا يبدأ انساناً صغير الحجم ليس عليه الا ان يتسع ليصبح ذا حجم أكبر . انما الجنين يتكون انطلاقاً من خلية واحدة . . الجسم الانساني بتعدد اعضائه واجهزته يخرج من تلك الخلية الواحدة التي لا اعضاء فيها ولا اجهزة . ذلك ان الخلية الاولى في تكاثرها لاتوجد عددا كبيرا من الخلايا وحسب ، انما تلك الخلايا التي اوجدت تتخصص لتؤلف كل فئة منها جهازا من أجهزة الجسم . فالبعض تتخصص لتصبح عظاماً والبعض الآخر عضلات والبعض الآخر دماغاً واعصاباً والبعض الآخر قلبا وشرايين وهلم جرا . ويرافق هذا التخصص تنسيقاً بديعاً بين الأجهزة حتى تؤلف جسما متماسكاً منسجم الاجزاء ، وكأن العملية كلها موجهة بموجب تصميم رائع . في كتاب « الانسان هذا المجهول » يقول لنا العالم الكبير الكسي كاريل ان هذا النمو مذهل كما لو رأينا بيتاً يتكون انطلاقاً من حجر واحد يكوّن حجارة أخرى عديدة تنتظم جدراناً وغرفاً دون انتظار تصميم المهندس وتتحول بعضها زجاجاً للنوافذ والبعض الآخر قرميداً للسقف

والبعض فحما للتدفئة والبعض ماء للمطبخ .

غرائز الحيوانات :

غرائز الحيوانات مدهشة خاصة اذا نظرنا الى الحشرات ورأينا عند تلك الكائنات البدائية تصرفات محكمة تفوق ذكاءها بما لا يقاس . فالنحل يصنع خلاياه من الشمع الذي تفرزه غدده ولكنه يتوصل بغريزته الى حلّ مسألة حسابية دقيقة ، الا وهي : ما هو الشكل الهندسي الذي يجب أن يعطى للخلايا ليتسنى استغلال المجال والشمع على أكمل وجه ؟ حاول الرياضيون ان يحلوا هذه المسألة، فوجدوا ان ثلاثة اشكال هندسية تسمح بأن لا يبقى فراغ بين خلية وأخرى (مما يوفر المجال) وبان تكون بالتالي اضلاع مشتركة بين الخلايا (مما يوفر المواد).هذه الاشكال الثلاثة هي المثلث والمربع والمسدس الاضلاع . ولكن شكل المسدس الاضلاع هو بين الاشكال الثلاثة الشكل الذي يؤمّن المساحة نفسها مع أكبر توفير في المواد . هذا الشكل هو بالضبط الشكل الذي يعتمده النحل في بناء الخلايا . وهكذا وجد النحل بالغريزة ما وجده الرياضيون بجهدهم العقلي . في الغريزة اذاً ترتيب بديع كذلك الترتيب الذي نجده في الفلك وفي جسم الانسان .

وهناك ظاهرة غريزية بديعة عند النحل اكتشفها حديثاً العالم الالماني كارل فون فريتش . فقد لاحظ هذا العالم ان النحلة الكشافة اذا اكتشفت زهراً ارشدت النحلات جامعات الغلّة الى مكانه بواسطة رقصة خاصة بشكل رقم 8 تؤديها امامها . وعندما درس تلك الرقصة عن كثب اتضح له ان انحناء محورها بالنسبة للخط العمودي يعادل انحناء اتجاه الزهر المكتشف بالنسبة الى اتجاه الشمس بموجب الرسم التالي :



هكذا فانحناء محور الرقصة يرشد الى اتجاه الزهر . اما المسافة التي يبعد بها عن بيت النحل فترشد اليها سرعة الرقصة ، لان هذه السرعة هي بنسبة معكوسة مع تلك المسافة .

هذا النظام الذي يبدو في مختلف مظاهر الكون ، كيف نفسره ؟ أنقول إنه من المادة ؟ ولكن المادة — كما يدرسها العلماء — هي مجموعة ذرات وطاقات . فالسؤال هو : ما الذي يوجد في تلك المجموعة نظاماً ، ما الذي يجعل منها كوناً مرتباً ذلك الترتيب المنطقي الذي لولاه لما استطاع العقل ان يفهم الكون ويبني علماً ؟ البيت مؤلف من حجارة ولكن المهم هو : ما الذي رصف الحجارة على شكل بيت ؟ الكتاب مؤلف من حروف ولكن المهم هو : ما الذي رتب الحروف لتؤدي معاني رواية او مسرحية او بحث فلسفي ؟ اننا في رصف الحجارة نرى فكر المهندس وفي ترتيب الحروف نرى فكر المؤلف كذلك في ترتيب الكون نرى فكراً جباراً لا قياس بينه وبين الافكار البشرية . لذا قال العالم الكبير المعاصر انشتاين ان كل عالم رصين هو «في حالة ذهول وانخطاف امام انسجام نواميس الطبيعة الذي فيه يتجلى عقل فائق بهذا المقدار حتى ان كل أفكار البشر الماهرة وترتيباتها ليست، اذا قيست به، سوى انعكاس تافه بالكلية...» (انشتاين : كيف أرى الكون) . هذا الفكر الجبار هو فكر الله .

ج – عطش الانسان الى المطلق

ولكن اثر الله يبدو ايضاً في أعماق القلب البشري . انه يتجلى مثلا في عطش الانسان الى المطلق .

يمكن ان يُعرّف الانسان أنه « حيوان قَلِق » . هذه ميزة اساسية يختلف بها عن سائر الكائنات الحية . فللحيوان رغبات غريزية محدودة ، سهلة الارضاء ، لذلك ليس في حياته مشاكل . اما الانسان فكلما حاول اشباع رغباته اشتدت وقويت فيه هذه الرغبات ، وكأن هناك شيئاً في اعماق كيانه يحركه ويعذبه ويوجهه ويدفعه دون هوادة . في الانسان تباين دائم ، تفاوت مستمر بين ما يرغبه وما يملكه ، بين ارادته ومقدرته ، بين ما يريد ان يكون وما هو عليه . لذلك يندفع دون هوادة لازالة هذا التباين ولكنه لا يتوصل ابداً الى هذه الغاية . فكلما حاول ان يقترب من مرغوبه ، ابتعد هذا عنه موقظاً في نفسه الخيبة والحسرة . هذا ما يبدو في الخبرة اليومية وعلى كل الاصعدة . نكتفي بذكر البعض منها :

– فالانسان الساعي الى مال او مجد لا يكتفي بما حصل عليه . انه كلما بلغ مأربه يطمع بالمزيد . ولذا لا يعرف قلبه راحة او استقراراً . « عين الانسان لا تشبع » كما يقول المثل السائر .

– ولنأخذ السعي الى الجمال . امام منظر طبيعي بديع او قطعة ادبية رائعة او لوحة أخاذة او موسيقى ساحرة ، يشعر الانسان ، الى جانب نشوته ، بشيء من الحزن ، ويزداد هذا الحزن بنسبة ما يكون جمال هذا المنظر او هذا الانتاج الفني اخاذاً . كيف يُفسر هذا الحزن ؟ ذلك ان الجمال الذي ادركناه ايقظ فينا حنيناً لا قدرة لنا على اطفائه ومن هنا نشأ الالم. وماهو صحيح بالنسبة الى المتمتع بالجمال ينطبق اكثر على الفنان الذي ينتجه . فكم من الادباء والفنانين الخلاّقين افضوا الينا بالمرارة التي كانوا يشعرون

بها عندما كانوا يبدعون تحفة فنية رائعة. عندما كانت تخرج تلك التحفة الرائعة حقاً ، من ايديهم ، كان الألم يحز في نفوسهم لشعورهم بالتفاوت بين ما كانوا يحلمون به وما استطاعوا ان يحققوه .

– ولننتقل الآن الى خبرة الحب . فالحب ، كما هو معلوم ، ينزع الى تأليه المحبوب . الا يسمي المحب الحبيب «معبوده» ؟ انه اذاً يطلق عليه قيمة لامتناهية وينتظر منه سعادة مطلقة . ولكنه يُمنى بالخيبة ، فالمحبوب ، مهما سمت صفاته ، بشر وليس الهاً ، لذا لا يمكنه ان يقدم لمحبه السعادة الفردوسية التي يحلم بها . لذا دعا الشاعر الفرنسي المعاصر كلوديل المرأة المحبوبة «وعداً لا يمكن ان يُبر به» . وحتّى اذا لم يؤلّه المحبوب ، فالحب يسعى الى شركة بين الحبيبين تامة وخالدة ، ولكنه يصطدم بالسأم الذي تولده العادة وبالأنانية والموت .

مجمل الكلام ان للانسان المحدود اماني لامحدودة ، ولذلك يعيش في توتر دائم . ولكن ما هو سر هذا التفاوت الصارخ ؟ من اين للانسان هذا السعي الى اللامتناهي والمطلق فيما لا تقدم له خبرته سوى ما هو محدود ونسبي ؟ التفسير الوحيد المرضي لتلك الظاهرة الغريبة هو ان الانسان المحدود يحمل في ذاته صورة كائن لامحدود ، ويكون هكذا سعيه الى المطلق تعبيراً عن حنين تلك الصورة الى اصلها ، وتكون خيباته المتكررة ناتجة عن كونه يخطىء المرمى فيفتش عن المطلق واللامتناهي بين المخلوقات فيما لا يستطيع سوى الله ان يروي عطش قلبه . فكما ان المد يفترض وجود القمر الذي يجتذب اليه مياه البحر ، ولو كان القمر مختفياً وراء السحب ، كذلك مدّ النفوس في سعيها المتواصل الى المطلق يستقطبه الله ولو احتجب الله عن نظرنا وادراكنا: «يا رب لقد خلقتنا متجهين اليك ولذلك لن تجد قلوبنا راحة الا اذا استقرت فيك» (اوغسطين المغبوط)

الله يكشف ذاته لنا بالوحي الالهي

لكن الله شاء ان يكشف لنا ذاته بشكل اوضح واكمل من تهجئة الخليقة له . لذلك شاء ان يحدثنا عن ذاته :

ا ــ **بواسطة حوادث الخلاص** التي ترويها لنا الكتب المقدسة الموحاة منه والتي يظهر لنا منها كيف خلق الله الانسان واعتنى به وكيف هيأ الله افتداء الانسان بتهيئته للشعب اليهودي وعنايته الخاصة به وتربيته له وكيف تمم الخلاص اخيرا بتجسده والحوادث التي تبعته من بشارة وموت وقيامة وصعود الى السماء وارسال الروح القدس .

ب ــ **بواسطة رجال اختارهم ليحدثوا الناس عنه ،** فكشف لهم ذاته لكي ينبئوا الناس عنه وعن حبه وارادته ، ولذا دعوا انبياء ، ليس فقط لأنهم تنبأوا بما سوف يحدث وخاصة عن المخلص المنتظر ، ولكن خاصة لانهم انبأوا البشر بقوةوحرارة عن اللهوما تنتظر محبتهمن الناس.

ج ــ **وخاصة بواسطة الابن المتجسد :** « بعد ان كلم الله الآباء بالانبياء كلمنا اخيرا بابنه »(الرسالة الى العبرانيين ١ : ١) . احبنا الله الى حد أنه اراد ان يعيش بيننا ، كواحد منا ، وان يجعل نفسه منظوراً وملموساً منا في شخص الابن المتجسد . وهكذا نلنا اعظم واكمل اعلان عن الله لان « لا أحد يعرف الآب الا الابن » والابن نفسه حدثنا عن الآب وعن نفسه وعن الروح وكشف لنا ان الله ثالوث وادخلنا الى سر حياة الثالوث .

كل هذا الوحي الالهي حفظ في الكنيسة التي اسسها الرب يسوع لتنقل الينا بأمانة ما أوحى الله به وتفسره حسب رأي الله بالهام الروح القدس الساكن فيها لان « كما ان لا احد يعرف ما في الانسان الا روح الانسان الساكنة فيه هكذا لا يعرف احد الله الا روح الله » .

بها عندما كانوا يبدعون تحفة فنية رائعة. عندما كانت تخرج تلك التحفة الرائعة حقاً ، من ايديهم ، كان الألم يحز في نفوسهم لشعورهم بالتفاوت بين ما كانوا يحلمون به وما استطاعوا ان يحققوه .

– ولننتقل الآن الى خبرة الحب . فالحب ، كما هو معلوم ، ينزع الى تأليه المحبوب . الا يسمي المحب الحبيب «معبوده» ؟ انه اذاً يطلق عليه قيمة لامتناهية وينتظر منه سعادة مطلقة . ولكنه يُمنى بالخيبة ، فالمحبوب ، مهما سمت صفاته ، بشر وليس الهاً ، لذا لا يمكنه ان يقدم لمحبه السعادة الفردوسية التي يحلم بها . لذا دعا الشاعر الفرنسي المعاصر كلوديل المرأة المحبوبة «وعداً لا يمكن ان يُبر به» . وحتى اذا لم يؤلّه المحبوب ، فالحب يسعى الى شركة بين الحبيبين تامة وخالدة ، ولكنه يصطدم بالسأم الذي تولده العادة وبالأنانية والموت .

مجمل الكلام ان للانسان المحدود اماني لامحدودة ، ولذلك يعيش في توتر دائم . ولكن ما هو سر هذا التفاوت الصارخ ؟ من اين للانسان هذا السعي الى اللامتناهي والمطلق فيما لا تقدم له خبرته سوى ما هو محدود ونسبي ؟ التفسير الوحيد المرضي لتلك الظاهرة الغريبة هو ان الانسان المحدود يحمل في ذاته صورة كائن لامحدود ، ويكون هكذا سعيه الى المطلق تعبيراً عن حنين تلك الصورة الى اصلها ، وتكون خيباته المتكررة ناتجة عن كونه يخطىء المرمى فيفتش عن المطلق واللامتناهي بين المخلوقات فيما لا يستطيع سوى الله ان يروي عطش قلبه . فكما ان المد يفترض وجود القمر الذي يجتذب اليه مياه البحر ، ولو كان القمر مختفياً وراء السحب ، كذلك مدّ النفوس في سعيها المتواصل الى المطلق يستقطبه الله ولو احتجب الله عن نظرنا وادراكنا: «يا رب لقد خلقتنا متجهين اليك ولذلك لن تجد قلوبنا راحة الا اذا استقرت فيك» (اوغسطين المغبوط)

الله يكشف ذاته لنا بالوحي الالهي

لكن الله شاء ان يكشف لنا ذاته بشكل اوضح واكمل من تهجئة الخليقة له . لذلك شاء ان يحدثنا عن ذاته :

ا — **بواسطة حوادث الخلاص** التي ترويها لنا الكتب المقدسة الموحاة منه والتي يظهر لنا منها كيف خلق الله الانسان واعتنى به وكيف هيأ الله افتداء الانسان بتهيئته للشعب اليهودي وعنايته الخاصة به وتربيته له وكيف تمم الخلاص اخيرا بتجسده والحوادث التي تبعته من بشارة وموت وقيامة وصعود الى السماء وارسال الروح القدس .

ب — **بواسطة رجال اختارهم ليحدثوا الناس عنه** ، فكشف لهم ذاته لكي ينبئوا الناس عنه وعن حبه وارادته ، ولذا دعوا انبياء ، ليس فقط لأنهم تنبأوا بما سوف يحدث وخاصة عن المخلص المنتظر ، ولكن خاصة لانهم انبأوا البشر بقوةوحرارة عن اللهوما تنتظر محبتهمن الناس.

ج — **وخاصة بواسطة الابن المتجسد** : « بعد ان كلم الله الآباء بالانبياء كلمنا اخيرا بابنه »(الرسالة الى العبرانيين ١ : ١) . احبنا الله الى حد أنه اراد ان يعيش بيننا ، كواحد منا ، وان يجعل نفسه منظوراً وملموساً منا في شخص الابن المتجسد . وهكذا نلنا اعظم واكمل اعلان عن الله لان « لا أحد يعرف الآب الا الابن » والابن نفسه حدثنا عن الآب وعن نفسه وعن الروح وكشف لنا ان الله ثالوث وادخلنا الى سر حياة الثالوث .

كل هذا الوحي الالهي حفظ في الكنيسة التي اسسها الرب يسوع لتنقل الينا بأمانة ما أوحى الله به وتفسره حسب رأي الله بالهام الروح القدس الساكن فيها لان «كما ان لا احد يعرف ما في الانسان الا روح الانسان الساكنة فيه هكذا لا يعرف احد الله الا روح الله » .

اسئلة

١ – كيف يكشف لنا الله ذاته في الطبيعة ؟
٢ – كيف يقودنا إلى الله ارتباط كل ما في الكون بأسباب ؟
٣ – هل تعرف مثلا عن النظام الذي يسود في الكون : مأخوذاً من الفلك ؟ مأخوذاً من الجسم الإنساني ؟ مأخوذاً من غرائز الحيوانات ؟
٤ – كيف يقودنا هذا النظام إلى الله ؟
٥ – هل تعرف معنى المثل الشعبي : « إن عين الإنسان لا تشبع » ؟ هل هنالك أمثلة في حياتك أنت وحياة الناس عامة تثبت حقيقة هذا المثل ؟ إلى ما يشير هذا التفاوت بين محدودية الإنسان وأمانيه اللا محدودة ؟
٦ – كيف يكشف الله لنا ذاته في الكتاب المقدس ؟ في حوادث هذا الكتاب ؟ في أقوال الأنبيـــاء ؟ في الرب يسوع ؟

ملحــــق

حين يجد الانسان نفسه على شفير الموت ، قد يشعر ، اكثر مما في اي وقت آخر ، بمحدودية كيانه وان كيانه هذا ، وبالتالي كيان جميع المخلوقات ، انما هو مستمد من آخر . في تلك اللحظات التي يحس فيها الانسان ان الوجود يفلت منه ، قد يختبر بقوة ان هــذا الوجود ، وكل وجود ، ليس قائما بذاته ، انما هو قائم فقط بارادة آخر . لذا فقد تكون هذه اللحظات مناسبة للتوجه الى الله او لتقوية الصلة به . وفيما يلي شهادتان على ذلك :

١ ـ النص الاول وجد ، في احدى ساحات قتال الحرب الاخيرة ، على جثة احد الجنود ، وقد كتبه في ليلة معركة لقي فيها حتفــــه . وكان النص موقعا Pvt. J.J.V.

« اسمع يا الهي ، انني لم اكلمك قط قبل الان ،
ولكنني اليوم اريد ان أقول لك : « كيف حالك ؟ »
لقد قيل لي انك غير موجود
وانا عندئذ ، كأبله ، صدقت ذلك .

في الليلة الماضية ، من حفرة القنبلة التي كنت فيها ، كنت ارى سمـــاءك ،
لذلك تحققت جيدا انهم كذبوا علي ٠
لو كلفت نفسي ان ارى كل ما صنعت
« لكنت فهمت انه لا يمكن ان ينكر وجودك ٠

« اتساءل ان كنت تقبل ان تصافحني ٠
« على كل اشعر انك ستفهمني ٠
انه لمؤسف ان اكون قد اتيت الى هذا المكان الجهنمي
قبل ان يتيسر لي الوقت الكافي لاعرف وجهك ٠

« لعمري ، أفكر انه لم يبق لي شيء كثير اقوله
لكنني سعيد لانني صادفتك هذا المساء يا الهي ٠
اعتقد ان الساعة ستأتي قريبـا ٠
لكني لا اخشى منذ شعرت انك قريب بهذا المقدار ٠

« ها هي الاشارة ! يجب ان اذهب يا الهي !
انني احبك كثيرا وأريد ان تعرف ذلك ٠
انظر ، سوف تحدث معركة هائلة
ومن يدري ؟ يمكن ان آتي اليك في هذه الليلة !

« رغم ان علاقاتي السابقة معك لم تكن حسنة ،
« اتساءل ان كنت ستنتظرني على عتبة بابك ٠
انظر انني ابكي ! غريب ان اذرف انا دموعا !
« آه ! ليتني تعرفت اليك قبل الان بكثير !

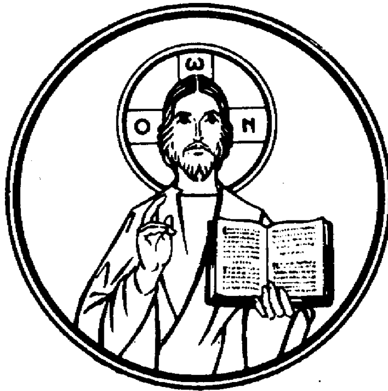
« آه ! يجب ان اذهب الان : الوداع ٠٠٠
امر غريب ! منذ ان تعرفت اليك لم اعد اخاف الموت » ٠

٢ ـ أما النص الثاني فهو مقطع مـــن رسالة كتبهـا الكاتب الروسي الشهير المعاصر بوريس باسترناك ، مؤلف كتاب : «الدكتور جيفاغو » والحاصل على جائزة نوبل ، يصف فيها لاحد اصدقائـه اول ليلة قضاها في المستشفى اثر نوبة قلبية كادت تودي بحياته (وهي واحدة من سبعة وستين رسالة للكاتب المذكور سوف تنشر عـــن قريب) :

« في تلك اللحظة التي كانت تبدو لي اخر لحظات حياتي ، كنت اريد ، بأكثر قوة مما مضى ، ان اخاطب الله واقول له : يا رب ، اشكرك لانك جعلت حياتي وموتي على هذا المنوال ، لان صوتك جليل بهذا المقدار ، لانك جعلت مني فنانا مبدعا تعلم في مدرستك انـت ، لانك هيأتني طيلة حياتي لاستقبال هذه الليلة · لقد كنت سعيدا الى حد انني بكيت » ·

بوريس باسترناك

(عن جريدة l'Orient ٢٢ آب ١٩٦٧)



الايمان والحياة

الاستعدادات الضرورية لاقتبال كشف الله

كشف الله عن نفسه لي هو كشف شخص لشخص ، كشف شخص الله غير المحدود لشخصي المحدود ،وهذا الكشف لا يتم الا في لقاء حي بين الله وبيني . واللقاء يتطلب ان يسعى الشخصان احدهما الى الآخر . الله يسعى دوما الي لانه يحبني ولكن لا يكرهني على ان اسعى اليه لانه يحترم حريتي . وكماان الانسان اذا اغلق قلبه دون انسان آخر ، لا يستطيع ان يفهمه ولا يحس حقيقة بوجوده ، هكذا بالحري الانسان الذي يعظم نفسه ويكتفي بذاته ، لا يمكنه ان يعرف الله .

اذاً لا يكفي ان يفتش الانسان بعقله عن الله ليجده ، انما يطلب منه ان يكون قلبه مستعدا للقاء الله . يقول الرب يسوع : « طوبى لانقياء القلوب لانهم يعاينون الله » (متى ٥ : ٨) . والنقي القلب هو الذي لا غش فيـــه اى الانسان المستقيم ، المخلص ، الذي يسعى الى الحقيقة بكل جوارحه والمستعد الى اقتبال الحقيقة ولو كانت تخالف كبرياءه واهواءه . هذا الانسان مستعد قلبه للقاء الله .

كثيرون يعتقدون بأنهم يعرفون الله لأنهم يرددون كلمات عنه . ليست هذه سوى معرفة سطحية لا قيمة لها . المعرفة الحقيقية لله لا تتم الا في لقاء حي يكشف فيه الله ذاته لي . معرفة الله فيالانجيل تعني محبة الله ، « عرف الله » معناه احبه ، لان معرفة الله لا تتم خارج محبة الله:« ان احبني احد ، يحبه ابي وانا احبه واكشف له

ذاتي » (يو ١٤ : ٢١) . لذلك يقول آباء الكنيسة ان اللاهوتي هو الانسان الذي يصلي . اذاً اعلى شهادة في اللاهوت لا تكفي وحدها لمعرفة الله . المسيحي البسيط الذي يصلي حقيقة اي يناجي الله ويرفع اليه روحه يعرف الله اكثر من لاهوتي كبير لا يصلي بل يكتفي برصف كلام بديع عن الله . لذا كتب القديس غريغوريوس التزينزي : « الحديث عن الله عظيم ، ولكن الافضل ان نطهر ذواتنا لله » .

الايمان لا يكتمل الا بالحياة

كما ان معرفة الله لا تتم الا بالاتصال الحياتي به ، هكذا الايمان لا يكتمل الا بالحياة . لا يعتبر مؤمنا ذاك الذي يعترف بوجود الله ولكنه يتصرف كأن الله غير موجود . المؤمن ليس ذاك الذي ينادي بفكرة الله ، انما هو الذي يقبل الله الها له اي محوراً لكيانه كله وموجها ومسيرا لحياته كلها . بهذا المعنى يقول الله عن الذين سوف يقبلونه « سأكون لهم الها » (حزقيال ١١ : ٢٠). انه موضوعيا الههم منذ الازل ، شاؤوا او ابوا ، انما يصبح حياتيا الههم عندما يسلمون اليه حياتهم كلها . ابراهيم اعتبر ابا للمؤمنين ليس لانه اعتقد بالالهالواحدوسط شعب وثني بل لانه اسلم حياته لله ، فقبل ان يتخلى عن اهله وعشيرته وبيئته ومصالحه وعوائده، وان يخرج متجها الى مكان مجهول اعده الله له .

جوهر الايمان اذاً ان يصبح الله الهي أي المرجع المطلق لكل اموري وان اطيعه ليس فقط في تصرفاتي الخارجية بل وفي افكاري ورغباتي .

هذا ما تعنيه كلمة « ارثوذكسية » . انها تفيد في آن واحد « الاعتقاد المستقيم » و « التمجيد المستقيم » وبهذا تعلمنا ان الاعتقاد المستقيم لا يكتمل الا بتمجيد مستقيم ، تمجيد الله بحياتنا كلها « ان

اكلتم وان شربتم ومهما عملتم فاعملوا كل شيء لمجد الله » (١كو ١٠ : ٣١) ، « مجدوا الله في اجسادكم وفي ارواحكم التي هي لله » بهــذا المعنى ايضا يقول فيلاريتوس مطران موسكو « لن يكون دستور الايمان لكم الا اذا عشتموه » .

اسئلة

١ – ما هي الا ستعدادات الضرورية لا قتبال كشف الله لنا ؟ (أنظر مثلا متى ٥ : ٨)

٢ – هل يكتمل الإيمان بدون الحياة ؟ هل يعتبر مؤمناً ذاك الذي يعتقد بالله ولكنه يعيش كأن الله غير موجود ؟ هل اعتبر ابراهيم أبـــا المؤمنين لأنه اعتقد بالله وحسب ؟

الايمان والعلم

هل من تناقض بين الايمان والعلم ؟

هذا ما يدعيه الكثيرون من دعاة الالحاد . ولكن هذا الاعتقاد خاطىء من الاساس .

ا – لان العلم والايمان يعملان على صعيدين مختلفين . فالعلم يهتم بربط حوادث الكون بعضها ببعض ولكنه لا يبحث في ما هو ابعد من ذلك أي أصل الكون والانسان ومصيرهما ومعنى وجودهما لان ذلك خارج عن نطاقه . فالعلم مثلا يصف لنا تطور الحياة من ابسط الكائنات حتى الانسان ولكنه لا يبحث في اصل المادة التي تطورت وفي موجه هذا التطور وفي غايته . اما الايمان فيعلمنا ان الله اوجد المادة ووجه تطورها وان غاية التطور ايجاد كائن على صورة الله ، هو الانسان ، معد للاشتراك في حياة الله نفسها . فالعلم الذي ينادي بالتطور لا يخالف بذلك الايمان والايمان الذي يرى في التطور خطة من خطط الله لا يخالف العلم .

ب – لان معظم بناة العلم الحديث كانوا مؤمنين ، ولنذكر على سبيل المثل نيوتن الذي كان يرفع قبعته اجلالا كلما ذكر اسم الله وكيبلر وفاراداي وباستور وامبير الذي كان يردد امام صديقه اوزانام : « ما اعظم الله » . ولنذكر بين المعاصرين اديغنتون وماكس بلانك ولويس لبرنس رنغيه من اعظم علماء الذرة . ولنذكر ايضا كاهنين يعتبران من اقطاب العلم الحديث : الاب جورج لوميتر صاحب نظرية مشهورة في نشوء الكون هي نظرية التمدد الكوني ، والاب بيار تيار دي شردان من اعظم العلماء والمفكرين المعاصرين

وهو اخصائي كبير في علم التطور نادى في مؤلفاته بأن التطور لا يفهم الا اذا اعتبرنا الله الفه وياءه . كل هؤلاء كان علمهم مدعاة لتغذية ايمانهم بالله لأنهم تطلعوا بالعلم الى عجائب الكون فرأوا فيها يد الله : «ما اعظم اعمالك يا رب ، كلها بحكمة صنعت».مز ١٠٣ : ٢٤

ج – لان الاختراعات البشرية الحديثة وسيطرة البشر المتزايدة على الطبيعة لا تنفي كما يدّعي البعض سلطة الله ، انما هي بالاحرى اشارة الى هذه السلطة . وذلك لان ما يخول الانسان – وهو جزء من الطبيعة – ان يدرك مكنونات الطبيعة ويسيطر على طاقاتها بهذا المقدار العجيب ، هو كون الله الذي خلقه على صورته جعله مشاركا له الى حد ما في سلطته على الكون : « انميا واكثرا واملأا الارض وتسلطا عليها » . فسلطة الانسان على الكون مستمدة من سلطةالله لذا يجب ان تقوده ليس الى الانتفاخ والتبجح بل الى التسبيح والشكر لمن وهبه اياها حبا . هذا ما تفعله الكنيسة في كل قداس الهي عندما ترفع الى الله كذبيحة شكر الخبز والخمر اللذين يمثلان ليس فقط الطبيعة ولكن الصناعة البشرية كلها التي بواسطتها تمكن الانسان من اخراج النبات من الارض وتحويل القمح والعنب الى خبز وخمر ، فيقبل الآب كل ذلك محولا الى جسد ابنه .

اسئلة

١ – هل من تناقض بين الإيمان والعلم ؟ هل صحيح أن صعود الإنسان إلى القمر إذا تم أو إرساله صواريخ إلى الفضاء يناقضان سلطة الله ؟ أليست سلطة الإنسان على الكون مستمدة بالأحرى من سلطة الله ؟ (أنظر تكوين ١ : ٢٨)

ملحـــق

١ ـ شهادة اثنين من بناة العلم الحديث :

« شاهدت الله في اعماله وفي نواميس الطبيعة التي تثبت ان هناك حكمة وقوة مستقلتين عن المادة » (**نيوتن ، فلكي وريـــاضي انكليزي يعتبر من اعظم العلماء الذين برزوا في تاريخ العلم)** ٠

ـ « أيها الخالق ٠ اباركك لانك سمحت لي ان اعجب بأعمالك ٠ لقد اتممت رسالة حياتي بالعقل الذي انت وهبتنيه ٠ اذعت للعالـم مجد اعمالك ٠ فاذا كنت بأعمالي التي كان يجب ان تتجه نحوك طلبت مجد الناس فأعف عني لصلاحك وحنوك ٠ ايتها الانسجامات السماوية باركي الرب ٠ يا نفسي باركي الرب ٠ »

(كيبلر ـ فلكي ورياضي الماني ـ لقب بمشترع السماء)

٢ ـ شهادة فيزيائي كبير معاصر : Louis Leprince-Ringuet

ولد سنـــة ١٩٠١

في سنة ١٩٤٩ اصبح عضوا في اكاديمية العلوم ٠

في سنة ١٩٥٩ اصبح استاذا للفيزياء النووية في الـ Collège de France

في سنة ١٩٦٤ اصبح رئيسا للمركز الاوروبي للابحاث النووية في جنيــف ٠

في سنة ١٩٦٦ انتخب عضوا في الاكاديمية الفرنسية ٠

اختصاصي كبير في دراسة الجزئيات ذات الطاقة الكبرى

بمناسبة انتخابه لعضوية الاكاديمية الفرنسية ، كتب عنـــه François Rumo :

« أن لويس لوبرنس رنغيه مسيحي مقتنع ومجاهد ، يعيش ايمانه كاملا في كل وجوده وفي كل اعماله ولم يغلق عليه في زاويـــة منفصلة وخفية من حياته ٠ كل الذين يعاشرونه ـ مع العـلم ان علاقاته تشمل كل علماء الفيزياء في العالم ـ يعرفون ما هي اعتقاداته ٠٠ والى جانب نشاطاته المهنية ، اراد لوبرنس رنغيه ان يكرس جزءا كبيرا من وقته الحر لرسالة اصيلة في الاوساط العلمية وخاصـــة بدعم عمل الاتحاد الكاثوليكي للعلماء الفرنسيين ٠٠٠ لقد كـــان رئيسا لهذا الاتحاد منذ تأسيسه سنة ١٩٤٦ وحتى السنة الماضية ٠ وكان في مهمته هذه كثير النشاط ، مواظبا على كل اجتماعات مجلس الاتحاد ولجنته الادارية ٠٠٠ وبفضله الى حد كبير تمكن الاتحاد هذا

في فرنسا ان يؤكد بمجموعته ، التي تضم عددا كبيرا من اعضاء اكاديمية العلوم الى جانب الباحثين الشباب ، ان الاخلاص للايمان والاخلاص للعلم يتوافقان كليا ، واكثر من ذلك ان جمع هذين الاخلاصين في وحدة حياة شخصية يغني الانسان وينمي شخصيته بشكل مرموق · وبفضله ايضا الى حد كبير اقيم حوار مثمر بين العلماء المسيحيين والعلماء غير المؤمنين ··· »

François Russo in «Ecclesia» no - 211 - octobre 1966

٣ ـ شهادة جراح كبير معاصر واسقف : رئيس الاساقفة لوقا

ان بعض اقطاب العلم في القرون الماضية وفي عصرنا هذا كانوا رجالا مكرسين لله في الكهنوت او الرهبنة · فكوبرنيك الذي احدث انقلابا في المفاهيم الفلكية باعتباره الشمس لا الارض مركزا للنظام الشمسي ، كان راهبا المانيا · ومانديل الذي اكتشف قوانين الوراثة واسس علم الوراثة الحديث كان راهبا تشيكوسلوفاكيا · وقد ذكرنا آنفا عالمين معاصرين شهيرين كلاهما من رجال الدين : الاب جورج لوميتر البلجيكي والاب بيار تيار دي شاردين الفرنسي · وسنذكر الآن رجلا جمع في شخصه العلم الفذ والاسقفية ، رئيس الاساقفة لوقا الروسي الارثوذكسي (وهو الاستاذ الجراح الشهير الدكتور فوينويا سنتسكي الحائز على جائزة ستالين والمذكور في الموسوعة الطبية السوفياتية الكبرى) :

ـ ولد سنة ١٨٧٧

ـ صار دكتورا في الطب سنة ١٩٠٣

ـ سنة ١٩٢١ ، في طشقند حيث كان استاذا في كلية الطب ، شرطن قسا وترهب ·

ـ شرطن اسقفا سنة ١٩٢٣ ·

ـ لم يدع مزاولة الطب والجراحة بعد ذلك وقد برع فيهما **حتى استحق جائزة ستالين عام ١٩٤٦ وذكر اسمه في الموسوعة الطبية السوفياتية الكبرى ·**

ـ في الحرب الاخيرة ، اثناء رعايته لابرشية كراسنويارسك كان يدير مستشفيات المدينة ·

ـ بين ١٩٤٤ و ١٩٤٥ رئس كرسي تمبوف ·

ـ سنة ١٩٤٦ عين رئيس اساقفة على سيمفيروبول ·

ـ اشتهر بمواعظه ولم ينفك حتى اخر رمق من حياته يرعى صحة الناس الروحية والجسدية .

ـ توفي سنة ١٩٦٢

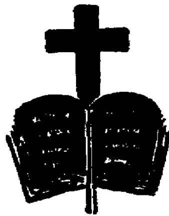
وفيما يلي مقطع من خطاب القاه سنة ١٩٥٧ في ذكرى ميلاده الثمانين :

« ... انما اريد ان احدثكم عن جلائل اعمال الله التي ظهرت في حياتي . وقد علمت ان كثيرين يتساءلون كيف ... بعد ان ادركت شهرة العلماء ، استطعت الانصراف الى التبشير بانجيل المسيح . ان من يفكر على هذا النحو يرتكب خطأ كبيرا ، فهو يفترض انه لا يمكن التوفيق بين العلم والدين . ومن كان على هذا الرأي ، فهو في ضلال مبين ، فان شواهد تاريخ العلوم تدلنا على ان عباقرة العلماء امثال غاليلي ونيوتن وكوبرنيك وباستور ، والفيسيولوجي الروسي بافلوف ، كانوا متدينين تدينا عميقا . كما اني اعرف ان بين اساتذة الجامعات من معاصرينا كثيرين ممن يؤمنون ، فالبعض منهم يسألونني البركة » .

رئيس الاساقفة لوقا

حامل جائزة ستالين في الجراحة

(عن مجلة « النور » ـ السنة ١٩ ـ العدد ٤ـ٢٨ شباط سنة ٦٣)



الفصل الثاني

ألوهة الابن

« وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد ، المولود من الآب قبل كل الدهور ، نور من نور ، اله حق من اله حق ، مولود غير مخلوق ، مساو للآب في الجوهر ، الذي به كان كل شيء »

١ ــ الوهة الابن

٢ ــ شهادات من الكتاب المقدس على الوهة الابن

– اشتهر بمواعظه ولم ينفك حتى اخر رمق من حياته يرعى صحة الناس الروحية والجسدية

– توفي سنة ١٩٦٢

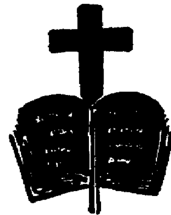
وفيما يلي مقطع من خطاب القاه سنة ١٩٥٧ في ذكرى ميلاده الثمانين :

« ··· انما اريد ان احدثكم عن جلائل اعمال الله التي ظهرت في حياتي · وقد علمت ان كثيرين يتساءلون كيف ··· بعد ان ادركت شهرة العلماء ، استطعت الانصراف الى التبشير بانجيل المسيح · ان من يفكر على هذا النحو يرتكب خطأ كبيرا ، فهو يفترض انه لا يمكن التوفيق بين العلم والدين · ومن كان على هذا الرأي ، فهو في ضلال مبين ، فان شواهد تاريخ العلوم تدلنا على ان عباقرة العلماء امثال غاليلي ونيوتن وكوبرنيك وباستور ، والفيسيولوجي الروسي بافلوف ، كانوا متدينين تدينا عميقا · كما اني اعرف ان بين اساتذة الجامعات من معاصرينا كثيرين ممن يؤمنون ، فالبعض منهم يسألونني البركة » ·

رئيس الاساقفة لوقا

حامل جائزة ستالين في الجراحة

(عن مجلة « النور » – السنة ١٩ – العدد ٤–٢٨ شباط سنة ٦٣)



الفصل الثاني

ألوهة الابن

« وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد ، المولود من الآب قبل كل الدهور ، نور من نور ، اله حق من اله حق ، مولود غير مخلوق ، مساو للآب في الجوهر ، الذي به كان كل شيء »

١ ــ الوهة الابن

٢ ــ شهادات من الكتاب المقدس على الوهة الابن

الوهة الابن

يؤكد لنا الفصل الثاني من دستور الايمان الوهة الابن وقد وضع لتثبيت اعتقاد الكنيسة المستقيم تجاه البدعة التي اتى بها كاهن اسكندري يدعى آريوس في أوائل القرن الرابع مدعيا بان الابن مخلوق وانه دون الآب . فاجتمع لدحض ارائه (التي ورثها « شهود يهوه» في ايامنا) مجمع يشمل الكنيسة جمعاء وهو المجمع المسكوني الاول الذي انعقد في مدينة نيقيا سنة ٣٢٥ ووضع القسم الاكبر من دستور الايمان الذي نتلوه في كل قداس ومن جملته هذا الفصل المتعلق بالوهة الابن .

ويؤكد لنا هذا الفصل ان الابن « **مساو للآب في الجوهر** » أي ان له الطبيعة الالهية نفسها التي لله الآب . فكما ان الابن يأخذ عن ابيه الانسان طبيعته الانسانية ، هكذا ابن الله يستمد من الآب طبيعته الالهية ، وكما ان النور الصادر من الشمس له طبيعة الشمس نفسها التي هي نور هكذا الابن الصادر من الآب (وهذا معنى كلمة « مولود ») له طبيعة الآب عينها : « **نور من نور ، اله حق من اله حق** » . وينتج من ذلك ان الصفات الالهية التي للآب كالازلية والقدرة على كل شيء والمعرفة التامة والقداسة الكاملة ، هذه الصفات كلها هي للابن ايضا .

الابن صادر عن الآب ولكنه « **مولود غير مخلوق** » . فالمخلوق يخرج من العدم الى الوجود بارادة الله ، ولكن ابن الله يصدر من صميم الله الآب نفسه . لذلك فان هوة تفصل الخالق والمخلوق ، ما ابن الله والله الآب فهما على الصعيد نفسه لانهما يشتركان كلاهما في الطبيعة الالهية الواحدة . البشر يدعون ابناء الله فقط من اجل

محبة الله لهم واعتنائه بهم . هذه المحبة تجتاز الهوة التي بين الخالق والمخلوق ولكنها لا تزيلها . اما يسوع المسيح فهو ابن الله **بطبيعته** اي انه بحد ذاته في وحدة كاملة مع الآب ولذلك دعي « **ابن الله الوحيد** » ، — أي أنه وحده ابن الله بالمعنى الكامل لهذه العبارة بينما نحن لا ندعى ابناء الله الا لان محبة الله تتبنانا رغم الهوة السحيقة بين طبيعة الله وطبيعتنا المخلوقة .

والمخلوق يبدأ في الزمن اي أنه يكون غير موجود من قبل ثم في لحظة معينة من الزمن يظهر في الوجود . ولذلك يكون الابن البشري في البدء دون ابيه لان اباه سبقه في الوجود واكتسب بنموه ما لم يكتسبه الابن بعد . اما ابن الله فلم يكن زمن لم يكن موجودا فيه . النور صادر من الشمس ولكن لا شمس بدون نور ، كذلك الفكر صادر عن العقل ، ولكن لا عقل بدون فكر . هكذا الابن مولود من الآب ولكن لا آب بدون ابن . وجود الابن اذاً ملازم لوجود الآب كما وجود النور ملازم لوجود الشمس ووجود الفكر ملازم لوجود العقل . وبما ان الآب لا ابتداء له أي أزلي لانه اصل كل شيء ولا اصل له ، كذلك الابن ازلي مثله : « **مولود من الآب قبل كل الدهور** » .

اسئلة

١ — ما هي العقيدة التي يعبر عنها الفصل الثاني من دستور الإيمان ؟
٢ — من أنكر هذه العقيدة في القديم ومن ينكرها في أيامنا ؟
٣ — ما معنى العبارات : « مساو للآب في الجوهر » ، « نور من نور » ، « إله حق من إلـه حق » ؟
٤ — ما الفرق بين مولود ومخلوق ؟
٥ — نحن أبناء الله ويسوع المسيح ابن الله . فما الفرق بين بنوتنا وبنوته ولماذا دعي هو « ابن الله الوحيد » ؟
٦ — ما معنى عبارة « مولود من الآب قبل كل الدهور » ؟

شهادات من الكتاب المقدس على الوهة الابن

هذا الايمان بالوهة الابن تسلمته الكنيسة من الرسل وقد عُبر عنه في الكتاب المقدس بآيات جلية :

أ – فقد اطلق الكتاب المقدس على يسوع المسيح الاسماء الالهية نفسها التي يطلقها على الله :

فمن القاب الله في العهد القديم عبارة « **الاول والآخر** » مثلا : « انا الرب . انا الاول والآخر » (اشعيا ٤١ : ٤) « هكذا قال الرب ملك اسرائيل وفاديه رب الجنود انا الاول وانا الآخر ولا اله غيري » (اشعيا ٤٤ : ٦).ولكننا نرى سفر الرؤيا في العهد الجديد يطلق اللقب نفسه على يسوع المسيح : « وفي وسط المنائر السبع شبه ابن الانسان... فلما رأيته سقطت عند قدميه كالميت فوضع يده اليمنى علي قائلا لا تخف انا الأول والآخر والحي وقد كنت ميتا وها أنا حي الى دهر الدهور» (رؤيا ١ : ١٣ و ١٧ و ١٨).

– ومن القاب الله في العهد القديم عبارة « **رب الارباب** » ، مثلا : « لان الرب الهكم هو اله الالهة ورب الارباب الاله العظيم الجبار الرهيب الذي لا يحابي الوجوه ولا يقبل رشوة » (تثنية ١٠ : ١٧) ولكننا نرى ايضا سفر الرؤيا في العهد الجديد يطلق اللقب عينه على يسوع المسيح : « وهؤلاء يحاربون الحمل والحمل يغلبهم لانه رب الارباب وملك الملوك » (رؤيا ١٧ : ١٤) وايضا « وعليه ثوب مصبوغ بالدم واسمه كلمة الله ... وعلى ثوبه وعلى فخذه اسم مكتوب ملك الملوك ورب الارباب »(رؤيا ١٩ : ١٣ – ١٦).

ب – وقد نسب الكتاب المقدس لابن الله الجوهر الالهي نفسه :

« اذ في المسيح يحل كل ملء اللاهوت جسديا » (كولوسي ٢ : ٩) أي في جسد المسيح يحل ملء اللاهوت . وقد تجلى ذلك في الحديث

الذي القاه الرسول بولس على رعاة كنيسة افسس قبل مغادرته اياهم : « فاحذروا لانفسكم ولجميع الرعية التي اقامكم فيها الروح القدس اساقفة لترعوا **كنيسة الله التي اقتناها بدمه**» (اعمال ٢٠ : ٢٨). فالدم الذي سفك من اجل الكنيسة ، دم المسيح ، يدعى هنا دم الله ، لان الطبيعة الالهية مستقرة في يسوع المسيح .

ج ــ وقد نسب له ايضا الوحدة التامة مع الآب :

ــ فقد صرح الرب يسوع : « انا والآب واحد » (يوحنا ١٠ : ٣٠) وايضاً : «من رآني فقد رأى الآب » (يوحنا ١٤ : ٩) وأيضاً مخاطباً الآب : « كل ما هو لي فهو لك وكل ما هو لك فهو لي » (يوحنا ١٧ : ١٠) .

د ــ اخيرا نسب الكتاب المقدس للابن الصفات والاعمال الالهية :

ــ **الازلية:** « والآن مجدني يا ابت عندك بالمجد الذي كان لي لديك من **قبل كون العالم** » (يوحنا ١٧ : ٥) . « الحق الحق اقول لكم قبل ان يكون ابراهيم انا كائن » (يوحنا ٨ : ٥٨) . ولنلاحظ كيف لم يقل « انا وجدت » بل « انا كائن » للدلالة على ان وجوده لا بدء له .

ــ **السلطة التشريعية الالهية** : « قد سمعتم انه قيل للأولين لا تقتل فان من قتل يستوجب الدينونة . **اما أنا فأقول لكم** ان كل من غضب على اخيه يستوجب الدينونة» (متى ٥ : ٢١ ــ ٢٢) . وايضاً : « قد سمعتم انه قيل للاولين لا تحنث ... **اما أنا فأقول لكم** لا تحلفوا البتة » (متى ٥ : ٣٣ ــ ٣٤) . هنا يضع يسوع سلطته التشريعية بمنزلة سلطة الله فيوضح ويكمل بسلطته الخاصة الشريعة التي كان الله نفسه قد اعطاها قديماً بواسطة موسى (راجع خروج ١٠ : ١ و ٧ و ١٣) وهذا مايشير الى ان ليسوع كل السلطة الالهية .

ــ **السلطة على غفران الخطايا** : هذه السلطة يملكها الله وحده ،

لان كل خطيئة مخالفة لله ولذلك لا يستطيع سوى الله ان يغفرها. لذلك كان اليهود على حق عندما قالوا: «من يقدر ان يغفر الخطايا الا الله وحده؟» (لوقا ٥ : ٢١). ولكن يسوع برهن عن لاهوته بممارسته الحق الالهي في غفران الخطايا: «ولكن لكي تعلموا ان ابن البشر له سلطان على الارض ان يغفر الخطايا ...» (لوقا ٥: ٢٤).

- السلطة الالهية على الحياة والموت :

في العهد القديم اقام ايليا ابن الارملة واقام اليشع ايضا ولدا، ولكنهما فعلا ذلك بقوة الله التي استمداها بصلاة وتضرع. فقد ورد في سفر الملوك: «وانبسط على الغلام ثلاث مرات وصرخ الى الرب وقال: ايها الرب الهي لتعد روح الغلام الى جوفه. **فسمع الرب لصوت ايليا** وعادت روح الغلام الى جوفه وعاد حياً» (الملوك الثالث ١٧ : ٢١ - ٢٢).

اما يسوع فقد كانت له في ذاته تلك السلطة المطلقة على الحياة والموت التي يملكها الله وحده. لذلك قال: «كما ان الآب يقيم الموتى ويحييهم كذلك **الابن يحيي من يشاء**» (يوحنا ٥ : ٢١).

لذلك نراه يقيم الموتى بلهجة الآمر الذي يملك في ذاته سلطة اقامتهم ولا يستمدها من غيره. فعندما اقام ابن ارملة نايين قال: «ايها الشاب **لك اقول قم**، فاستوى الميت وشرع يتكلم، فسلمه الى امه» (لوقا ٧ : ١٤ و ١٥). كذلك عندما اقام ابنة يايروس «اخذ بيدها ونادى قائلا: «**يا صبية قومي**، فرجعت روحها ونهضت في الحال» (لوقا ٨ : ٥٤ و ٥٥).

اسئلة

١ – هل أطلق الكتاب المقدس الأسماء نفسها على الله وعلى يسوع المسيح ؟
أنظر أشعيا ٤٤ : ٦ ورؤيا ١ : ١٣ و ١٧ و ١٨
تثنية الا شتراع ١٠ : ١٧ ورؤيا ١٩ : ١٣ – ١٦ ورؤيا ١٧ : ١٤

٢ – هل نسب الكتاب المقدس لا بن الله الجوهر الإلهي نفسه ؟ أنظر. كولوسي ٢ : ٩ وأعمال الرسل ٢٠ : ٢٨

٣ – هل نسب الكتاب المقدس للا بن الصفات و الأعمال الإلهية ؟
– الأزلية : أنظر يوحنا ١٧ : ٥ ، يوحنا ٨ : ٥٨
– السلطة التشريعية الإلهيـــة : أنظر متى ٥ : ٢١ – ٢٢ ، متى ٥ : ٣٣ – ٣٤ قابل مع خروج ٢٠ : ١ و٧ و١٣
– السلطة على غفران الخطايـــا : أنظر لوقـــا ٥ : ٢٤
– السلطة الإلهية على الحياة والموت : أنظر يوحنا ٥ : ٢١ ، لوقا ٧ : ١٤ لوقا ٨ : ٥٤ قابل مع الملوك الثالث ١٧ : ٢١

ملحـــــق

لقد اعلن يسوع بوضوح عن الوهته ليس بالكلام وحسب ولكن بتصوفات خاصة ، تلك التصرفات التي كانت تظهر انه ينسب لنفسه سلطة الهية ، هذا ما يبدو مثلا في موقفه من الشريعة الموسوية ، تلك الشريعة التي كان الله مصدرها • وقد كتب بهذا الصدد الإب جان دانيالو عميد كلية اللاهوت الكاثوليكي في باريس في كتاب صدر لــه مؤخرا :

« عندما يقول المسيح : ان ابن الانسان هو رب السبت ايضا ، يقول الفريسيون : هذا الانسان يجدف • وهم (من وجهة نظرهم) محقون ، لان السبت اقيم من الله • اذا الله وحده هو رب السبت •

« كثيرا ما رويت ••• ذلك الحديث (النموذجي) الذي جرى لي مع حاخام قال لي يوما : يا ابت ، هناك امر نلوم المسيح عليه ، وهو انه مس الشريعة ، لان الشريعة وضعها يهوه على جبل سينا ، **والله وحده يستيطع ان يعدل ما وضعه الله** • فاجبته : يا سيــدي الحاخام ، لم يكن بوسعك ان تقول ما يسرني اكثر من اقوالك هذه، لانه امر اكيد ان يسوع عدل الناموس ، وهذا يعني بالفعل ، ولايمكن ان يعني سوى امر واحد ، وهو انه ، ان كان الله وحده ، كما قلــت

وكما قلت بحق ، يستطيع ان يعدل ما وضعه الله ، فهذا يعني ان يسوع كان يعترف لنفسه بسلطة مساوية لسلطة ذاك الذي وضع الشريعة ، اي يهوه على جبل سينا . هذا ما كان اليهود يفهمونه تماما ولا يزالون يفهمونه تماما ... »

(ص ٩٤ ـ ٩٥)

لا يمكن لانسان ان ينسب الالوهة لنفسه ان لم يكن مختلا او مخادعا . ولكن البشر المخلصين ، أيا كان معتقدهم ، يجلون يسوع عن هاتين الصفتين . ان شخصيته الفذة تلاقي اجلالا ليس من المسيحيين وحسب بل من غير المسيحيين ايضا من مسلمين ويهود وهندوقيين وملحدين . هذا ما يوضحه ايضا الكاتب المذكور آنفا :

« ... كل الناس دون استثناء متفقون ليروا في يسوع ، بادنى حد ، احدى الشخصيات الاكثر سموا في التاريخ البشري . واقول كل الناس ، لان هذا الامر يتفق عليه ليس المسيحيون وحسب بل الآخرون ايضا . اقرأوا الكتب التي كتبها عن يسوع يهود كأدمون فلاغ وروبير آرون وجول اسحق وشالوم آش ... انهم يرون فيه احد التعابير الاكثر سموا عن شعب اسرائيل . وها هم المسلمون ، فيسوع ، عيسى ، يشغل في القرآن مكانة كبرى ، وكان محمد يرى في يسوع اعظم الانبياء . وها هم الهنود : كان غاندي واوروبنيدو يريان في العظة على الجبل اعلى قمة في الدين البشري . ومعظم الملحدين ، كالاشتراكي بربوس والوجودي جانسون والاركسي غارودي يعترفون بن في يسوع ، على الصعيد البشري ، عظمة ينحنون امامها » Jean Daniélou : Mythes païens Mystère chrétien (ص ٩٦)

هكذا لا بد من طرح السؤال : اذا كان يسوع قد نسب لنفسه الالوهة بوضوح ، من جهة ، واذا كان ـ بشهادة غير المسيحيين انفسهم ـ شخصية فذة تجل عن المخادعة او الاختلال العقلي ، افلا يعني ذلك ان شهادته عن نفسه يجب ان تصدق ؟ هذا السؤال الذي لا بد لكل انسان مخلص ان يطرحه على نفسه ، يجيب عليه المسيحيون بالايمان بالمسيح الها متأنسا .

الفصل الثالث

الخلق

١ – خلق الانسان

٢ – مقاصد الله نحو الانسان

خلق الانسان

يروي لنا الكتاب المقدس عملية خلق الانسان في الفصلين الاول والثاني من سفر التكوين . هذا النص يحوي حقائق عقائدية مغلّفة في صور رمزية ، شعرية واذا تمعنا في النص يمكننا ابراز المعاني الآتية :

١ – ارتباط الانسان بالطبيعة المادية

يقول لنا الكتاب المقدس ان الله أوجد الانسان من تراب . وهذا ما تشير اليه كلمة« آدم » ومعناها : المأخوذ من «أداما » اي الارض . فالانسان مرتبط اذاً بكيانه بتلك الطبيعة المادية التي هي أيضاً خليقة الله . وبالفعل نرى ان جسم الانسان مكون من العناصر نفسها التي تتكون منها الطبيعة المادية ، فالمواد الكيميائية الرئيسية العشر التي يتألف منها جسده واهمها الكربون والهيدروجين والاكسيجين والازوت هي من مقومات الكون المادي ، ذلك لأن الانسان خرج من هذا الكون بفعل الله . اما كيفية هذا الخروج فيعبر عنها الكتاب المقدس بصورة رمزية،شعرية، اذ يقول بان الله جبل طينا ونفخ فيه نسمة حياة. فالله يشبّه اذاً هنا بفخاري يجبل وينفخ مع اننا نعلم من الكتاب المقدس نفسه انالله روح لا يدين له اذاً ولافم. لذا لا يمكننا ان نأخذ النص الكتابي هذا بمعناه الحرفي بل ان ندرك المعنى العقائدي الكامن وراء هذه الصور الشعرية ، الا وهو ان الله هو علة بروز الانسان من جسم هذا الكون كما انه علة بروز الكون نفسه الى حيز الوجود .

ولا يصف لنا الكتاب المقدس كيفية بروز الانسان من جسم الكون وصفاً علميا لانه ليس كتاب علم(فالله اعطى الانسان العقل

ليبني به العلم) بل كتاب عقيدة دينية . ولكن هذه العقيدة لا تصطدم مع معطيات العلم . فالعلم يعتقد في ايامنا ان الانسان وليد تطور طويل برزت فيه الحياة انطلاقاً من المادة الجامدة رغم البون الهائل بينهما ثم اجتازت مدة نحو مليارين من السنين شوطا طويلا مكتنفاً بالاخطار الجسيمة ارتقت فيه رغم الصعوبات الهائلة من ابسط الاشكال الى اسماها تركيباً واتقانا حتى بلغت اوجها في الانسان. هذه المعطيات العلمية لا تتعارض مع ايماننا . ففي النظرية القديمة التي بموجبها خرج الانسان مباشرة من الطبيعة المادية او في النظرية الحديثة التي بموجبها لا يخرج الانسان من الكون المادي الا من خلال تطور طويل ، يبقى الله في نظر المؤمن علة وجود الانسان . لا شيء يمنع ان يكون الله قد استخدم التطور وسيلة لابراز الانسان من الطبيعة المادية . والمؤمن يرى في التطور البديع الذي يقول به العلم الحديث مظهرا من مظاهر حكمة الله اصل التطور وموجهه وغايته .

يروي لنا الكتاب المقدس أن الله لم يخلق الانسان الا بعد ان اوجد الكائنات الجامدة والحية كلها ، فكأن خلق الانسان آخر اعمال الخليقة وكأن الارض كلها هُيأت لوجود الانسان . وتقول نظرية التطور الحديثة بان الانسان هو قمة التطور . هنا يلتقي العلم الحديث بالنظرة الكتابية الى الانسان كتتويج الطبيعة وقمتها . ويعطي الكتاب شرحا لمكانة الانسان الرفيعة هذه اذ يقول بان الله خلقه على صورته ومثاله .

٢ ــ الانسان على صورة الله ومثاله

يقول الله في الكتاب المقدس : «لنصنعن الانسان على صورتنا ومثالنا » (تكوين ١ : ٢٦) . هذا يعني ان الله قد خص الانسان وحده بميزة لم ينعم بها على اية من المخلوقات الاخرى الا وهي انه جعل شبها بين ذلك المخلوق وبين الخالق ، فجعل في الانسان عقلا

وارادة وحرية وابداعا وحبا كلها صفات شبيهة بالصفات الموجودة فيه .

هكذا يظهر لنا ان هذا الانسان الذي هو، من ناحية، جزء من هذه الطبيعة التي منها أخذ، هو من ناحية اخرى متسام بما لا يقاس على هذه الطبيعة لأنه يحوي في ذاته صورة الله خالق الطبيعة . ولذا اعطاه الله ان يكون مشاركا له في سلطانه على الطبيعة الجامدة والحية : « وقال الله لنصنع الانسان على صورتنا ومثالنا وليتسلط على سمك البحر وطير السماء والبهائم وجميع الارض وكل الدبابات الدابة على الارض » (تكوين ١ : ٢٦) . فسلطة الانسان على الكائنات مرتبطة اذاً كما يظهر من هذا النص بكونه على صورة الله خُلق . وبعبارة اخرى اذا كان الانسان — وهو جزء من الطبيعة — قادراً على ادراك اسرارها وتسخير قواها لخدمته فأنما يعود ذلك الى صورة الله الكامنة فيه . وقد كان على الانسان ان يمارس سلطته بالعمل الذي هو، على صورة ما، تكميل للخلق لانه يجعل الطبيعة اكثر ترتيبا وجمالا وانتاجا : « واخذ الرب الاله الانسان وجعله في جنة عدن ليفلحها ويحرسها » (تكوين ٢ : ١٥) .

٣ — تصميم الله في اتحاد الرجل والمرأة

علاقة الجنسين يرسمها الكتاب المقدس بشكل شعري فيروي لنا أنه لم يكن لآدم بين المخلوقات شبيه « فقال الرب الاله لا يحسن ان يكون الانسان وحده فاصنع له عونا مثله » (تكوين ٢ : ١٨)، لذلك القى عليه سباتا عميقاً واخذ ضلعا من اضلاعه وكوّن منه المرأة الأولى التي دعيت حواء (اي ام الحياة) وأتى بها الى آدم ، « فقال آدم هذه الآن عظم من عظامي ولحم من لحمي » (تكوين ٢ : ٢٣) . ويضيف الكتاب : « لذلك يترك الانسان اباه وامه ويلازم امرأته ويصيران كلاهما جسداً واحدا » (تكوين ٢ : ٢٤) .

من هنا تتضح النظرة الكتابية الى علاقة الجنسين التي يمكن تلخيصها فيما يلي :

ا ـ **الجنسان متعادلان ومكملان احدهما للاخر** : انهما متعادلان في الطبيعة اذ يقول آدم ان المرأة عظم من عظامه ولحم من لحمه ، أي أنها من طبيعته . ولكنهما مكملان احدهما للآخر اذ يصور لنا الكتاب ذلك رمزيا بقوله انهما جزءان من جسد واحد مشيراً الى ان احدهما لا يكتمل دون الآخر . فميل كل من الجنسين الى الآخر كالى مكمله انما هو اذاً من ارادة الله .

ب ـ **اتحاد الجنسين يتم بالزواج الذي هو صلة عميقة وارتباط نهائي** : ويرسم لنا الكتاب المقدس ايضاً تصميم الله في اتحاد الجنسين ، فيقول لنا ان كلا من الرجل والمرأة يكتملان باتحادهما معا في الزواج الذي به « يصيران جسداً واحداً » . وعبارة « جسداً واحداً » تعني بلغة الكتاب « شخصاً واحداً » . وهذا يعني اولا ان الزواج حسب مقاصد الله رباط عميق يجمع شخصين جسداً وروحاً فيؤلف منهما شخصا واحداً . كما انه يعني ان الاتحاد الزوجي نهائي لا ينفصم لان « الجسد الواحد» لا يمكنه ان يتجزأ فيما بعد . لذلك عندما علّم الرب يسوع عن الزواج استشهد بهذا النص الكتابي واضاف اليه : «فما جمعه الله لا يفرّقه انسان » (متى ١٩ : ٦) .

هكذا فالله الذي قد أوجد الحب بين الرجل والمرأة قد « وضع لميل القلب رباطا لا ينفك » كما تقول طقوس سر الزواج . هذا « الرباط الذي لا ينفك » يفترضه الحب الحقيقي لان الشهوة تطلب الاستمتاع بالآخر الى ان تمل منه اما الحب الاصيل فيتوق الى عطاء متبادل نهائي . الشهوة تطلب التمتع العابر بجسد الآخر ، أما الحب الحقيقي فيرغب في اتحاد الشخصين في شخص واحد . الحب الحقيقي المكرس بالزواج حسب ارادة الله لا يلغي الشهوة ولكنه يلطفها ويهذبها

بالحنان وانعطاف القلب ويسخر قوتها لبناء اتحاد متين بين الزوجين كما أن صناعة الانسان تستخدم قوة المياه الغاشمة المدمرة لتوليد الكهرباء ومنفعة البشر .

اسئلة

اقرأ سفر التكوين : الفصل الأول والفصل الثاني .

١ – إلى ما تشير كلمة الكتاب بأن الله خلق آدم من تراب ؟

٢ – هل تصطدم نظرية التطور الحديثة مع إيماننا بأن الله علة وجود الإنسان ؟

٣ – يقول لنا الكتاب المقدس إن الله خلق الإنسان بعد أن خلق سائر الكائنات الجامدة والحية ، وتقول نظرية التطور إن الإنسان هو النقطة التي وصل إليها التطور في آخر مراحله . كيف تظهر لنا إذاً ، من خلال هاتين النظرتين ، مكانة الإنسان في الخليقة ؟

٤ – كيف يفسر الكتاب المقدس هذه المكانة ؟

٥ – ماذا يعني قول الكتاب إن الله خلق الإنسان على صورته ومثاله ؟

٦ – هل أعطى الله الإنسان سلطاناً على الطبيعة ؟ (أنظر تكوين ١ : ٢٦)

٧ – ما هي العلاقة بين صورة الله في الإنسان وبين السلطان الذي منحه على الطبيعة ؟

٨ – كيف يظهر الكتاب المقدس نوعية العلاقات بين الجنسين ؟
كيف يظهر أنهما متعادلان في الطبيعة ؟ (أنظر تك ٢ : ٢٣)
كيف يظهر أنهما مكملان أحدهما للآخر ؟
كيف يظهر أن اتحادهما يجب أن يكون صلة عميقة وارتباطاً نهائياً (أنظر تكوين ٢ : ٢٤ ومتى ١٩ : ٦)
كيف يميز هذا الإرتباط النهائي وهذه الصلة العميقة الحب عن الشهوة ؟
هل يلغي الحب الحقيقي الشهوة أم أنه يلطفها ويوجهها ؟

مقاصد الله نحو الانسان

١) غاية خلق الانسان

حياة الله فرح دائم لا حد له . ولكن « الله محبة » ولذلك شاء ان يوجد كائنات يقيم معها علاقة حب فيشركها بحياته وفرحه . فأوجد هكذا البشر ليكونوا احباء له متمتعين بخيراته ، مساهمين في سعادته . هذا هو مجد الله ، ان يحيا الانسان ويسعد : « مجد الله هو حياة الانسان » كما يقول القديس ايريناوس (وهو أحد آباء الكنيسة عاش في القرن الثاني وكان اسقفا على مدينة ليون حيث استشهد) .

٢) تصميم الله الخاص بالانسان

يخبرنا الكتاب المقدس ان الله وضع آدم وحواء في حديقة جميلة كانا يتمتعان فيها بثمار شهية . وهذا يرمز الى ان الله اعد للانسان سعادة قصوى هي اشتراك في سعادته تعالى .

اما مصدر هذه السعادة فهو **اتحاد الانسان مع الله** ، هذا الاتحاد الذي يعبر عنه الكتاب المقدس بالالفة التي يظهرها بين الله وآدم اذ يروي لنا ان الله اتى بالحيوانات لآدم حتى يسميها باسمائها (تكوين ٢ : ١٩) وانه أتاه بامرأة لتكون رفيقة له (تكوين ٢ : ٢٢) الخ ...

وقد كان هذا الاتحاد بالله حريا ان يمتع الانسان بالخيرات التالية :

أ ـ **التنعم بتمام القوى النفسية** من عقل نير وارادة قوية تواقة الى الخير ونية طاهرة ومحبة دون أنانية .

ب ـ **الخلود** : لم يكن الانسان خالداً بطبيعته ولكن اتحاده بالله

كان حريا بأن يهبه الخلود باشتراكه في خلود الله نفسه . لذلك قال الكتاب ان الله جعل « شجرة الحياة في وسط الجنة » (تكوين ٢ : ٩) حتى اذا أكل الانسان منها « يحيا الى الابد » (تكوين ٣ : ٢٢) . وهذا يعني رمزيا ان الخلود نعمة وهبهـــا الله للانسان وان هذه النعمة كانت مرتبطة بسكنى الانسان في جنة عدن اي في كنف الله ، في الاتحاد مع الله .

ج – **السيادة على الطبيعة** : وقد كانت الطبيعة مهيّأة لتخضع للانسان بالنظر للصورة الالهية الكامنة فيه ، فلا تثور عليه ولا تضره ولا تسبب له مشقات ونكبات . هذا ما نرى اثرا له في سيرة بعض الرهبان القديسين الذين كانت تخضع لهم الحيوانات المفترسة لان الصورة الالهية كانت قد تجددت في نفوسهم ، وهذا ما يرينا الانجيل اياه في شخص يسوع الذي كان يحمل في انسانيته الصورة الالهية كاملة فيقول الانجيلي مرقس عنه : « واقام في البرية اربعين يوما ... وكان مع الوحوش » (مرقس ١ : ١٣) .

د – **الانسان كاهن الكون** : ومقابل خضوع الطبيعة هذا للانسان ، كان على الانسان ان يكون كاهن الكون . ذلك ان الانسان بطبيعته صورة مصغرة عن الكون Microcosme ، ففيه تلتقي عناصر المادة ووظائف الحياة وغرائزها بصورة الله التي تطبعها وتسمو بها . وهكذا فالانسان بطبيعته نقطة لقاء بين الله والكون ولذا كان عليه ان يكون صلة بينهما فالله بواسطته يكمل عمل الخلق في الطبيعة كما رأينا سابقاً . والطبيعة بدورها تسبح الله من خلاله ، لان كل تمجيد يرفعه الانسان لله بالقول والعمل انما يرفعه باسم هذا الكون الذي هو صورة مصغرة عنه ، وكأن الطبيعة قد وجدت في الانسان عقلا تسبح به خالقها . هكذا كان على الانسان ان يدير الخليقة باسم الله وان يرفع الى الله تسبيح الطبيعة . هذا هو

الدور الذي رسمه الله له ككاهن للكون لان الكاهن هو تحديداً ذلك الكائن الذي هو صلة بين الخالق والمخلوق .

٣ — دور حرية الانسان

هذا التصميم الذي رسمته المحبة الالهية لاسعاد الانسان ، لم يشأ الله ان يفرضه عليه . ذلك لان الله خلق الانسان حرا على صورته ، وبهذه الحرية تقوم كرامة الانسان . لو كان الله فرض تصميمه على الانسان فرضاً كما فرض الغرائز على الحيوانات والنواميس الطبيعية على المادة ، لكان الانسان آلة دقيقة ، بديعة ، متقنة وما كان انسانا اي كائنا على صورة الله متميزا بتلك الصورة عن الطبيعة كلها .

لقد احترم الله حرية الانسان لانها شرط كرامته ، ولان المحبة الحقة تحترم حرية المحبوب والله هو المحبة المطلقة التي تتضاءل أمامها كل محبة بشرية . الحب لا يفرض فرضا ، والا لم يعد حبا بل عبودية والله لم يرد عبيدا بل أبناء . الحب يُقدم ، والكائن الذي يقدم اليه يقبله أو يرفضه . هكذا عرض الله على الانسان حبه وانتظر منه الجواب . فكان على الانسان ان يجيب بملء اختياره على الحب بالحب او الرفض .

هذه مغامرة الحب الكبرى ان الله جعل نفسه على نوع ما مقيداً بالانسان ، جعل تحقيق تصميمه رهن حرية الانسان ، رضي بان يكون نجاح او فشل هذا التصميم الالهي متوقفاً الى حد ما على موقف الانسان .

لاهوت الله يتجلى لنا في هذا الاحترام الحي المذهل لحرية الانسان ، في هذا التخلي المذهل عن سلطته المطلقة على الانسان مخلوقه ، لذلك كتب الكاتب الهندي الشهير طاغور : « انني اعبد الله لانه يترك لي حرية انكار وجوده » اي ان لاهوته يتجلى لي في هذا الاحترام المذهل لحريتي .

كان على الانسان اذاً ان يتخذ موقفاً من الله، أن يقول لله نعم او لا. لقد خُلق الانسان مشابها لله ولكن كان عليه ان يحقق هذا الشبه بجهد متواصل وتحرك مستمر نحو الله ، كما ان الطفل يحقق بنموه صورة الرجل الكامنة فيه . كان متوقفا عليه ان ينمي بلا انقطاع صورة الله فيه او ان يحاول تعطيلها وازالتها من كيانه . تلك هي تجربة الحرية التي عنها نشأت مأساة الانسان .

اسئلة

اقرأ الفصل الثاني من سفر التكوين

١ – لماذا خلق الله الإنسان ؟
٢ – ما هو رمز هذه الحديقة التي وضع الله آدم فيها كما يروي الكتاب ؟
٣ – كيف تظهر ألفة الله والإنسان في هذا الفصل الثاني من سفر التكوين ؟
٤ – ألا تعتقد أن هذه الألفة كانت هي مصدر سعادة الإنسان ؟ كيف ذلك ؟
٥ – إلى ما تشير شجرة الحياة ؟ (أنظر مع الفصل الثاني العدد ٢٢ من الفصل الثالث)
٦ – ما هي الخيرات والمواهب التي أعدها الله للإنسان نتيجة اتحاده به ؟
٧ – ماذا نعني بقولنا إن الإنسان كان معداً ليكون كاهن الكون ؟
٨ – هل فرض الله على الإنسان مقاصده فرضاً ؟ لماذا احترم حريته ؟

ملحــــق

شارل باغي Péguy كاتب فرنسي اهتدى من الالحاد الى الايمان المسيحي وقتل سنة ١٩١٤ على احدى جبهات الحرب العالمية الاولى بعد ان خلف اثرا شعريا خالدا نقتطف منه المقطع التالي الـــــذي يعطي فيه الشاعر الكلام لله متحدثا عن حرية الانسان :

« لانني انا حر ، يقول الله ، وقد خلقت الانسان على صورتي ومثالي ،
هذا هو سر ، هذه هي قيمة
كل حرية .
ان حرية هذا المخلوق لهي أجمل انعكاس في العالم

لحرية الخالق • لذلك نعلق عليها
اهمية خاصة •
ان خلاصا غير حر ، غير صادر عن رجل حر ليست له قيمة
في عيني • فاي طائل له •
اي معنى له •
اية اهمية تكون لخلاص كهذا •
غبطة عبيد ، خلاص عبيد ، غبطة مستعبدة ، كيف تريدون ان
تهمني . هل يحب احد ان يكون محبوباً من عبيد ؟
ان كانت القضية قضية اعطاء البرهان عن قدرتي وحسب ،
فقدرتي ليست بحاجة الى هؤلاء العبيد ، انها معروفة كفاية ، معلوم
كفاية انني الكلي الاقتدار •
قدرتي تسطع كفاية في كل مادة وفي كل حدث •
قدرتي تسطع كفاية في رمال البحر ونجوم السماء •
لا اعتراض عليها ، انها معروفة ، انها تسطع كفاية في الخليقة
الجامـــدة •••
ولكن في خليقتي الحية ، يقول الله ، اردت أفضل من ذلــك ،
اردت اكثر من ذلك •
أفضل من ذلك بما لا يقاس • اكثر من ذلك بما لا يقاس •
لانني اردت تلك الحرية •
خلقت تلك الحرية عينها •••
من عرف نفسه مرة واحدة محبوبا بحرية ، لا يجد فيمـــا
بعد للخضوع طعما •
من عرف نفسه محبوبا من اناس احرار ، لا يجد فيما بعــد
معنى لسجدات العبيد • » (ص ٦٤ــ٦٥)
« خضوع العبيد كلهم لا يساوي نظرة جميلة واحدة لرجــل
حر • او بالاحرى خضوع العبيد كلهم تشمئز له نفسي وانني اهب
كل شيء مقابل نظرة جميلة واحدة لرجل حر ،
مقابل طاعة جميلة واحدة وحب جميل واحد واخلاص جميل
واحد صادر عن رجل حر •
في سبيل هذه الحرية ، في سبيل هذه المجانية ضحيت بكل شيء
يقول الله ، في سبيل ميلي بان يحبني رجال احرار •••
من أجل ان أنال هذه الحرية ، هذه المجانية،ضحيت بكل شيء،
من أجل ان أخلق هذه الحرية ، هذه المجانية ،
من أجل ان اطلق هذه الحرية وهذه المجانية » (ص ٩٩ــ١٠٠)
Charles Péguy : le Mystère des Saints Innocents

الفصل الرابع

سقوط الإنسان

١ ــ التجربة والسقوط

٢ ــ نتائج السقوط

٣ ــ صورة الله شوهت ولم تفقد

التجربة والسقوط

١ – تجربة الانسان

قلنا انه كان على الانسان ان يساهم بحريته في تتميم مقاصد الله نحوه وذلك بان يجيب على الحب بالحب فيتحرك باستمرار الى الله بتلك الطاقة المحركة التي اخذها منه فيزداد اقترابه من الله واتحاده به وينمو بذلك في الفرح والمعرفة والقوة والقداسة مقدسا معه الكون باسره .

الا أن التجربة كانت تنتظر الانسان الا وهي ان يحلم هذا المخلوق بالاستقلال عن خالقه والاستغناء عنه وبقطع الرباط البنوي الذي يجمعه به حتى لا يكون له مرجع آخر غير نفسه . تلك التجربة هي تجربة الحرية التي احترمها الله في الانسان الى حد ترك الخيار له بأن يرفض الله نفسه اذا شاء .

وقد عبر الكتاب المقدس عن هذه التجربة بشكل رمزي اذ قال ان الله طلب من الانسان الاول ان لا يأكل من شجرة واحدة وهي شجرة معرفة الخير والشر . تلك الوصية ترمز الى الطاعة التي طلبها الله من الانسان . وهي تعني ان الانسان كان عليه ان لا يستقل بنفسه دون الله وان يخضع ارادته لارادة الله بالحب ، والا عرف الخير والشر . ومعرفة الخير والشر لا تعني التمييز العقلي، فالانسان الذي خلق عاقلا على صورة الله كان بأمكانه من دون ان يخطىء ان يميز بعقله الخير من الشر . ولكن كلمة « معرفة » تعني اجمالا في الكتاب المقدس الاختبار الحياتي . اذاً معرفة الخير والشر تعني هنا ان الانسان كان عليه اذا خالف الله ان يختبر الشر ونتائجه وان

يقابل هذه الخبرة بخبرة الخير التي اعطيت له فيحس بالفرق الهائل بين الحالتين .

٢ ـ دور الشيطان

وقد علمنا الكتاب المقدس ان الشيطان كان عليه دور في اذكاء هذه التجربة التي كانت ملازمة لطبيعة الانسان ككائن حر وقد اشار الكتاب الى عمل الشيطان هذا في حديثه عن الحية التي اغوت حواء . والحية هذه رمز للشيطان كما يتضح من مقاطع اخرى من الكتاب المقدس مثلا :

« لقد دخل الموت الى العالم بسبب حسد الشيطان » (حكمة سليمان ٢ : ٢٤) .

« فطرح التنين العظيم الحية القديمة المدعو ابليس والشيطان الذي يضل العالم كله » (رؤيا ١٢ : ٩) .

وبهذا المعنى قال الرب يسوع متكلماً عن الشيطان : « هو قاتل للناس منذ البدء » (يوحنا ٨ : ٤٤).والشيطان في الاساس ملاك أي مخلوق روحي لا جسد له اوجده الله أيضا من العدم فكان صالحا نيرا ، الا أنه تمرد على الله فانفصل عنه واصبح في ظلمة وشقاء ، وبابتعاده عن الله الذي هو محبة تحجر في الحقد فكان مبغضا ليس لله فحسب بل لاعمال يديه ايضا . ولذلك ابغض الانسان بنوع خاص ، ذلك الكائن الذي اوجد على صورة الله المكروهة منه ، كما انه حسد الانسان على الفرح الموهوب له من الله ، ذلك الفرح الذي فقده هو بملء اختياره عندما اراد ان يجعل نفسه مثل الله . وكما ان الذين يتأصلون في الشر ويجدون فيه لذة مرةً يحاولون ان يغووا من بقي طاهرا وان يلطخوه لكي يشاركهم شرورهم لان رؤية الطهارة توبيخ لهم دائم يقض مضاجعهم ويثير ثائرتهم ، كذلك اراد الشيطان ان يجتذب اليه حرية الانسان فيفصله عن الله محطما

فيه صورة الخالق ومهلكا اياه معه .

٣ ــ نوعية السقوط

اما نوعية خطيئة الانسان فقد اوضحها الكتاب المقدس عندما قال : « فقالت الحية للمرأة ايقينا قال الله لا تأكلا من جميع شجر الجنة ؟ فقالت المرأة للحية من ثمر شجر الجنة نأكل واما من ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله لا تأكلا منه ولا تمساه كيلا تموتا . فقالت الحية للمرأة لن تموتا انما الله عالم أنكما في يوم تأكلان منه تنفتح اعينكما **وتصيران كآلهة** عارفي الخير والشر » (تكوين٣ : ١ ــ ٥) .

وهكذا يظهر لنا أن خطيئة الانسان انما هي خطيئة تمرد على الله مصدره انتفاخ الانا . لقد اراد الانسان ان يتأله بدون الله : « تصيران كآلهة »،ان ينطلق الى الاعلى والاكمل والافضل بدون قوة الله ، بقوة من ذاته . اراد ان يستغني عن الله ليكون الها لنفسه وسيداً مطلقاً على كيانه . وبعبارة اخرى اراد ان يرفض الله لينصب ذاته صنما يعبده .

وانتفاخ الأنا هذا انما هو خطيئة ضد الحب . فقد اعتبر الانسان ان المحبة التي تجمعه بالله قيد واسر له فاراد ان يحطم القيد بفصم شركته عن الله . قصة الانسان هي قصة ذلك الابن الشاطر الذي تحدث الرب عنه . كان ذلك الابن يشارك اباه في خيراته وكان عائشا في كنفه محبوبا مكرما . ولكن انتفاخ الانا فيه ابى عليه ان يبقى مستمدا خيراته من آخر ولو كان هذا الآخر والده العطوف علّة وجوده وسعادته ، لذا اعتبر الحياة في كنف ابيه ذلاً وعبودية وقرر ان لا يستمد خيره وسعادته الا من ذاته ، فشطر أي فصل نصيبه عن نصيب ابيه قائلا له : « اعطني ما يخصني من الميراث » (لوقا ١٥ : ١٢) . كذلك اعتبر الانسان حب الله المعطى له نيرا

لا يطاق ، لذا رفض هـــذا الحب واختار ان يقيم في العزلة ، فاصلا مصيره عن حياة الله .

تلك الخطيئة الجدية نموذج لكل الخطايا . ذلك ان ارتكابي لأية خطيئة يعني انني ارفض ان اتخذ الله مرجعا لي وانني اضرب بوجهة نظره عرض الحائط وانني عوض ان أحافظ على انسجام ارادتي مع ارادته بالطاعة التي يفرضها الحب البنوي ، اتخذ مشيئتي الخاصة قاعدة واحاول ان احقق ذاتي بمعزل عن الله .

اسئلة

اقرأ الفصل الثالث من سفر التكوين ومثل الإبن الشاطر (لوقا ١٥ : ١١ - ٣٢)

١ - كيف كانت تجربة الإنسان نتيجة لحريته ؟

٢ - من هو الكائن الذي أذكى هذه التجربة في الإنسان ؟ ولماذا ؟

٣ - كيف يتضح من الكتاب المقدس أن الحية المذكورة في الفصل الثالث من سفر التكوين تشير إلى هذا الكائن ؟ أنظر حكمة سليمان ٢ : ٢٤ ويوحنا ٨ : ٤٤ ورؤيـــا ١٢ : ٩ .

٤ - ما هي نوعية الخطيئة الجدية ؟ كيف تدحض الرأي الشائع الذي يقول به عامة الناس إن تلك الخطيئة كانت زواج آدم من حواء (راجع تكوين ١ : ٢٧ و ٢٨) ألا يظهر نص الكتاب نوعية هذه الخطيئة ؟ (أنظر تكوين ٣ : ١ - ٥)

٥ - ألا تلقي قصة الا بن الشاطر ضوءاً على نوعية الخطيئة الأصلية ؟ ألم يكن الا بن الشاطر عائشاً في بحبوحة وتنعم في كنف محبة والده ، فلماذا شاء الإنفصال عنه إذاً ؟

٦ - أليست الخطيئة الجدية نموذجاً لكل خطيئة ؟ كيف ذلك ؟

نتائج السقوط

الخطيئة الجدية اذاً رفض لله وانفصال عنه . وقد عبّر لنا الكتاب عن هذا الانفصال بقوله ان آدم وحواء اختبأا عن الله بين شجر الجنة : « فسمعا صوت الرب الاله وهو متمش في الجنة عند نسيم النهار فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الاله فيما بين شجر الجنة » (تكوين ٣ : ٨) هكذا حل محلّ الالفة مع الله الخوفُ منه والاغتراب عنه والتلهي عنه بالمخلوقات . اختبأ الانسان بين شجر الجنة، بين المخلوقات بعيدا عن الخالق وعندما ناداه الرب الاله قائلا له : « اين انت ؟ » فكأنه يقول له اين انت من محبّتي ؟ اين انت في هذه الموجودات التي تتلهى بها عني ؟ اطلب اياك اليفاً لي واذا بك ضائع في الموجودات .

ولكن انفصال الانسان عن الاله يترتب عليه نتائج مريعة . فالله ينبوع حياتنا واساس كياننا . ان كياننا لا قوام له بدونه اذ اننا كما قال الرسول بولس : « به نحيا ونتحرك ونوجد » (اعمال ١٧ : ٢٨) . لنتصور ان بامكان الغصن ان يختار مصيره وانه اختار ان ينفصل عن الشجرة ليكون مستقلا ، او لنحسب ان للسمكة مقدرة الاختيار وانها اختارت ان تخرج من عنصرها المائي معتبرة اياه حاصراً لها يحد من نشاطها . فماذا يحدث لغصن كهذا او لسمكة كهذه ؟ انهما لا محال يموتان لان لا حياة لهما بدون العنصر الذي كانا يستمدان منه الحياة .

هكذا كان اغتراب الانسان عن الله اغترابا عن ذاته أي انفصالا عن اساس كيانه لذلك فقد تصدع ذلك الكيان كله وساده الاضطراب واستولى عليه الفساد . لقد تشوهت وتحطمت في الانسان صورة الله لانه انفصل عن الله مصدرها ومن هنا نشأت مأساة الانسان . **واذا شئنا ان نلخص هذه المأساة بكلمة يمكننا ان نقول انها كانت**

مأساة التفكك . وحدة الانسان مع الله أي اتحاده به كانت أساساً لوحدته مع ذاته ولوحدته مع الآخر ولوحدته مع الكون . فلما فصم الانسان وحدته مع الله تصدعت وحدته مع ذاته ووحدته مع الغير ووحدته مع الكون وساد التفكك في تلك المجالات الثلاثة :

ا – تصدعت وحدة الانسان مع ذاته : بانفصال الانسان عن الله حصل تفكك في شخصه أي ان الانسجام بطل في كيانه :

– فالاهواء ثارت على العقل عوضا ان تكون خاضعة له موجهة منه ، ولذلك اظلم عقل الانسان اذ اصبح في كثير من الاحيان مسخرا لا للسعي الى الحقيقة بل لخدمة الشهوات . هكذا انتشرت الآراء والمعتقدات الباطلة بين البشر واخذ الانسان ينظر الى الاشياء لا كما هي بل كما تصورها له اهواؤه . واصبح و هو الكائن العاقل يؤله المال والقوة والجاه والنفوذ ويتعبد لاناس مثله من زعماء وغيرهم واصبح يسخر العلم نفسه للدمار .

– كذلك ثارت الغرائز على الارادة التي كانت وظيفتها في الاساس ان تسيّر هذه الغرائز وفقاً لصالح الانسان الحقيقي فاصبحت هذه الغرائز تشد الانسان اليها خلافا لحاجاته الاساسية (فالسكير مثلا يسعى الى ارضاء شهوته دون ان يقيم وزنا لصحته او كرامته او مستقبله او حياته العائلية) فضعفت الارادة واصبحت لا تقاوم الشر الا بصعوبة ولا تردع الا بجهد جموح الشهوات .

– كذلك طرأ التفكك على علاقة الانسان بجسده فاصبح للجسد استقلاله وأخذ يحاول فرض شهواته على الانسان وكأنه غريب عنه . وهذا ما عبّر عنه الكتاب المقدس بقوله ان آدم وحواء شعرا بأنهما عريانين فسترا جسديهما بأوراق التين (تكوين ٣ : ٧) وهذا يعني انهما بدأا يحسان بجسدهما وكأنه كائن مستقل فيهما يطالب باشباع

شهواته بينما كان فيما مضى مع الشخص كله في حركة واحدة الى الله . هكذا اصبحت الشهوة مستقلة عن الحب عوضا ان تكون مسخرة له .

– ومن نتائج التفكك في الكيان الانساني الامراض التي اصبح الانسان عرضة لها والتي هي اختلال في نظام الجسم البشري ، واخيرا الموت الذي هو انحلال لكيان الانسان . لقد كانت نعمة الله تكتنف الانسان وتحفظه من الامراض والموت اما وقد رفض هذه النعمة وتعرّى منها فلم يعد من شيء يحفظه من الانحلال الذي تؤول اليه طبيعته اذا تُركت وشأنها . هذا ما عبّر عنه الكتاب المقدس بقوله ان آدم أُبعد عن شجرة الحياة التي كانت تجعله خالدا (تكوين ٣ : ٢٢) أي انه فقد نعمة الخلود بابتعاده عن الله مصدرها . وبهذا المعنى قال الله لآدم : « تعود الى الارض التي أخذت منها لانك تراب والى التراب تعود » (تكوين ٣ : ١٩) .

ب – تصدعت الوحدة بين الانسان والغير : ولكن هذا التفكك الذي ساد في كيان الانسان الشخصي تعداه الى العلاقة بين الانسان والانسان . ذلك ان الانسان بانفصاله عن الله انفصل ايضا عن اخيه الانسان . فالله وحده يوحّد عميقا بين البشر ولذا فالخطيئة بابعادها الانسان عن الله تبعده عن قريبه . هذا التفكك بدأ فورا بعد السقوط عندما سأل الله آدم عن مخالفته فاجابه : « المرأة التي جعلتها معي هي اعطتني من الشجرة فاكلت » (تكوين ٣ : ١٢) . وهكذا القى المسؤولية على امرأته فاصلا مصيره عن مصيرها بينما كانا قد خلقا « ليكونا جسدا واحدا » أي شخصا واحدا . هكذا بالخطيئة تسرب الانقسام الى البشرية ، فاصبحت الانانية تفصل حتى بين الانسان واقرب الناس اليه وتشوه الحب على انواعه بارادة التسلط

على الآخر وامتلاكه كانه مجرد شيء او متعة دون مراعاة لحريته وكرامته ومصلحته وسعادته . وقاد ذلك الى تنافر بين الاخ واخيه ، بين الأب وابنه وبين الزوج وزوجته . ولذا يروي لنـــا الكتاب كيف ان السقوط تلاه قتل قايين لاخيه هابيل . وانفجرت الاحقاد بين البشر وحسد بعضهم بعضـــا وتجبر بعضهم عـــلى بعض واستعبد بعضهم بعضـــا وتطاحنوا في حروب اهلية وخارجية .

ج – **تصدعت الوحدة بين الانسان والطبيعة** : اخيرا كان من عواقب السقوط ان بطل هذا الانسجام الذي اعده الله بين الانسان والطبيعة . هذه الطبيعة التي كانت معدة لتخضع للانسان الحامل في ذاته صورة الخالق تمردت عليه حين تشوهت صورة الله فيه . فاصبحت تثير المتاعب في وجهه فتجعل عمله مضنيا كما قال الله : « ملعونة الارض بسببك بمشقة تأكل منها كل ايام حياتك وشوكا وحسكا تنبت لك . » (تكوين ٣ : ١٧ و ١٨) وهكذا لم يعد الانسان في مأمن من حتمية نواميس الكون بل صار الى حد بعيد ضحية هذه النواميس فاصبحت مصدر متاعب وكوارث ونكبات للانسان واخذت الحيوانات تؤذيه والجراثيم تفتك به .

اسئلة

اقرأ الفصل الثالث من سفر التكوين

١ – كيف يظهر انفصال الإنسان عن الله في تكوين ٣ : ٨ ؟

٢ – ألا يشبه انفصال الإنسان عن الله انفصال غصن عن شجرته أو سمكة عن عنصرها المائي ؟ كيف ذلك ؟ وما هي النتائج المنتظرة لا نفصال كهذا ؟

٣ – هل بقي الإنسان محافظاً على موهبة الخلود بعد سقطته ؟ (تكوين ٣ : ١٩و٢٢) لـــماذا لا ؟

٤ – كيف ظهر التفكك بين الإنسان وجسده بعد السقوط ؟ انظر تكوين ٧ : ٣ وحاول أن تفهم معنى هذه الآية .

٥ – ألم يكن طبيعياً أن توجد الخطيئة تفككاً بين الإنسان والإنسان؟ لماذا؟ كيف يظهر ذلك في تكوين ٣ : ١٢، ٤: ٨و ٩ ؟ وكيف يظهر في علاقات البشر ببعضهم وحتى بأقرب الناس إليهم ؟

٦ – ألم يكن من الطبيعي أن توجد الخطيئة تصدعاً في الوحدة التي أعدها الله بين الإنسان والطبيعة ؟ لماذا ؟ كيف يظهر هذا التصدع في تكوين ٣ :١٧ و١٨؟ ومـــا هي نتائجه بالنسبة للإنسان ؟



صورة الله شوهت ولم تفقد

الا ان صورة الله ، وان تشوهت في الانسان ، لم تضمحل بالكلية . ذلك انها ملازمة لطبيعة الانسان ومتأصلة فيها الى حد انها لو زالت بالكلية لما بقي الانسان انسانا . لذلك فقد احتفظ الانسان بميزات هي بقايا صورة الله فيه ولكن هذه الميزات تشوهت وضعفت بسبب سقوط الانسان . لقد احتفظ بعقل ولكن هذا العقل سرعان ما يضل واحتفظ بارادة ولكن هذه الارادة ضعيفة في كثير من الاحيان . واحتفظ بميل الى الخير ولكن كثيرا ما يبدو هذا الميل عاجزا عن الظهور الى حيز العمل ، كما قال الرسول بولس : « في وسعي ان اريد الخير واما ان افعله فلا ، لان ما اريد من الصالح لا افعله واما ما لا اريد من الشر فاياه افعل فان كنت افعل ما لا اريد فلست اذا بعد من يفعل بل الخطيئة الساكنة فيّ » (رومية ٧ : ١٨ — ٢٠) .

وهكذا اصبح الانسان كائنا غريبا تجتمع فيه المتناقضات اذ تلتقي فيه العظمة والحقارة . هذه العظمة ناتجة عما بقي من صورة الله فيه وهذه الحقارة ناتجة عن سقطته التي شوهت هذه الصورة . كل منا يشعر بهذه الازدواجية فيه لان نتائج السقوط امتدت الى الانسانية جمعاء . فقد ورثنا كلنا هذه الطبيعة الجريح النازفة . كل منا يخطىء ويشقى ويموت ولكنه يحن الى الخير والسعادة والخلود حنينه الى الفردوس المفقود .

رحمة الله للانسان

لم يكن بامكان الانسان ان ينهض بنفسه بعد هذه السقطة المريعة التي هشمت كيانه تهشيماً . فقد كان كالواقع في هاوية وقــــد تحطمت اعضاؤه ولم يعد يستطيع الى الصعود منها سبيلا ما لم ينشله غيره . ولكن

محبة الله لم تترك الانسان وشأنه . لقد رفض الانسان الله ولكن الله لم يرفض الانسان. لقد قال الانسان لله « لا » ولكن الله الذي هو « محبة » لم يزل قائلا : « نعم » لان محبته غير مشروطة. لا بل اصبحت خطيئة الانسان مدعاة لظهور محبة الله له بشكل لا يتصوره العقل . لقد ترك الانسان وحده خارج الجنة في المشقة وفي الموت لان حريته هكذا ارادت ولكن الله سوف يخرج من السماء لافتقاد الانسان خارج جنة عدن . هذا هو التجسد .

اسئلة

١ – كيف يمكننا أن نقول إن الخطيئة شوهت صورة الله في الإنسان ؟ لقد كانت هذه الصورة تظهر في الإنسان بعقله وإرادته وميله إلى الصلاح واستعداده للعطاء وخلوده وسيادته على الكون فكيف تشوه كل ذلك في الإنسان؟

٢ – هل أمحت صورة الله في الإنسان أم بقيت فيه آثارها ؟ ألا يختبر كل منا في ذاته ازدواجية بين العظمة والحقارة ؟ (انظر روميه ٧ : ١٨ – ٢٠) كيف يمكننا أن نفسر هذه الا زدواجية على ضوء تعليم الله ؟

٣ – هل بطلت محبة الله للإنسان بعد سقوطه ؟ كيف تجلت هذه المحبة في تكوين ٣ : ٢١ ؟ لقد ترك الإنسان وحده خارج الجنة لأن حريته هكذا شاءت ولكن ألم يكن الله مزمعاً أن يفتقده هناك ؟ ما هي الصورة الفائقة العقل التي اتخذها هذا الا فتقاد؟

الفصل الخامس

التجسد

« الذي من اجلنا نحن البشر ومن اجل خلاصنا ، نزل من السماء وتجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء وتأنس » .

١ ـــ غاية التجسد

٢ ـــ تهيئة التجسد

٣ ـــ دور العذراء مريم في التجسد

٤ ـــ شخص يسوع المسيح

غاية التجسد

بالخطيئة كما رأينا ، انفصل الانسان عن الله وغدا مهشما طريحاً غير قادر ان ينهض نفسه من الهوة التي سقط فيها . لم يكن بامكانه ان يرتفع الى الله ولذلك فقد شاء الله في محبته ان ينحدر بنفسه الى الانسان ليعيد الشركة بين الانسان وبينه . ان الله احب الانسان «حباً جنونياً» على حد تعبير اللاهوتي نقولا كباسيلاس ، حتى انه وهو الكائن الابدي ، الخالق ، ذو السعادة المطلقة ، لم يترك وشأنه ذاك الانسان الذي رفضه اختيارياً بل انحدر اليه ساعياً في طلبه ، كما سعى الراعي الذي تكلم عنه الرب يسوع وراء الخروف الضال (انظر لوقا ١٥ : ١ — ٧) ، غير مكتف بالملائكة كما لم يكتف ذلك الراعي بالتسعة والتسعين خروفاً التي لم تضل .

بالتجسد اخذ الله على نفسه طبيعتنا البشرية المنحطة ، الساقطة ، وضمها الى لاهوته ، لتسري فيها الحياة الالهية فتجددها وتشددها وكأنها تعيد تكوينها من جديد . ان الانسان عندما يفسد دمه او ينزف منه بغزارة يحتاج الى دم جديد ينقل الى جسمه المريض فيجري في شرايينه ويعيد اليه الصحة والحياة . هكذا داوى الله بالتجسد هذا النزيف الروحي المريع الذي هو الخطيئة الاصلية . بالتجسد بث الله حياته في الانسان المريض ، الجريح ، ليعيد اليه القوة التي خارت والجمال الذي تشوه وذبل .

بالتجسد اتحد الله ذاته بالانسان لتسري في الانسان حياة الله ، وهكذا يتأله الانسان على حد تعبير آباء الكنيسة الذين رددوا منذ القديس ايريناوس اسقف ليون في القرن الثاني للميلاد : « لقد صار الاله انساناً ليستطيع الانسان ان يصير الهاً » .

لقد رأينا ان الانسان سقط لكونه اراد ان يجعل نفسه الهاً دون

الله ، بالاستغناء عن الله . لقد كان يتوق ان يتأله ولكنه ضل الطريق اذ اعتقد ان التأله يتم بانتفاخ الانا . لقد كان في تصميم الله ان يتأله الانسان ، فانه لم يخلق الانسان ليكون له عبداً بل شريكاً في حياته الالهية. ولكن هذا التأله لم يكن ممكناً بمعزل عن الله بل كان مشروطاً باتحاد الانسان بالله . لان من الله ومن الله وحده يستمد الانسان كل موهبة وقوة وحياة . خارج الله ليس سوى العدم والفراغ والموت . ولكن الانسان استمع الى خداع الشرير فطمع بالتأله دون الله ، فلم يبلغ مأربه بل انحط من مستواه الانساني الاصيل عندما اراد ان يتشامخ فوقه واخضع طبيعته للموت . لقد كانت وعود الشيطان كاذبة (لقد قال عنه يسوع انه « كذوب وابو الكذب » في يوحنا ٨ : ٤٤) عندما اعلن للانسان انه بمخالفة الله يصير الها . تلك الوعود البراقة كانت وهما وخداعا ولكن ما لم يستطع الانسان ان يحققه عندما تشامخ حققه له الله عندما نزل اليه . لذلك تنشد الكنيسة في خدمة سحر البشارة :

« اليوم ينكشف السر الذي قبل الدهور وابن الله يصير ابن البشر لكي انه باتخاذه الادنى يهبني الافضل . لقد خاب آدم قديما فلم يصر الها كما كان قد اشتهى . فصار الاله انسانا لكي يصير آدم الها ».

هكذا اتخذ الله غير المحدود طبيعتنا المحدودة ، والكامل الخالد طبيعتنا الضعيفة المائتة . ان مجرد اتخاذه طبيعتنا المخلوقة وهو الخالق تنازل منه ولكنه ذهب في التنازل الحبي الى حد اتخاذ طبيعتنا في الحالة التعيسة التي آلت اليها بسبب سقطتها . هكذا بتنازله داوى تشامخنا وبانحداره الينا رفعنا اليه .

ولكن ماذا يعني قولنا ان الانسان « تأله » بالتجسد ؟ هذا لا يعني اننا اصبحنا آلهة بالطبيعة ، فاننا لا زلنا مخلوقات . ولكن التأله

يعني ان حياة الله قد اعطيت لنا فصرنا مشاركين له في محبته ، في مجده ، في قوته ، في فرحه ، في حكمته ، في قداسته ، في خلوده . لم نبلغ جوهر الله لانه دائما متعال لا يمكن الوصول اليه ، ولكن القوى الالهية اعطيت لنا واصبحت في متناولنا . هذا ما اوضحه بنوع خـاص الـقديس غريغوريوس بالاماس وثبتته المجامـع الارثوذكسية . بهذا المعنى ينبغي ان نفهم كلمة الرسول بطرس: « لقد صرتم شركاء الطبيعة الالهية » (٢ بطرس ١ : ٤).

اسئلة

١ – اقرأ لوقا ١٥ : ١ – ٧ . كيف يشير هذا المثل إلى معنى التجسد ؟

٢ – ما هي الغاية من اتخاذ الله بالتجسد طبيعة الإنسان الساقطة ؟

٣ – لقد سقط الإنسان عندما حاول أن يتأله . هل كان خطأه في سعيه إلى التأله أم في الطريق التي انتهجها للوصول إليـه ؟

٤ – ماذا تعني كلمة القديس إيريناوس : « لقد صار الإله إنساناً ليستطيع الإنسان أن يصير إلهـاً » . هل يتحدث الكتاب المقدس عن هذا التأليه الذي تعلم بـه الكنيسة الأرثوذكسية ؟ (أنظر ٢ بطرس ١ : ٤)هل يعني « تأليهنا »هذا أننا نصير معادلين لله ؟ إذا ماذا يعني ؟



تهيئة التجسد

التجسد اذاً مبادرة محبة مجانية من الله نحو الانسان الذي ابتعد عنه ورفضه باختياره : « بهذا ظهرت محبة الله فيما بيننا : بان الله ارسل ابنه الوحيد الى العالم لنحيا به. على هذا تقوم المحبة «لا اننا نحن احببنا الله بل هو نفسه احبنا وارسل ابنه كفارة عن خطايانا » (١ يوحنا ٤ : ٩ و ١٠) .

ولكن محبة الله لا تُفرض فرضا ، ولذا كان على الانسان ان يتقبل مبادرة الحب الالهي هذه.من اجل ذلك اهتم الله بمحبة ابوية ان يهيء البشر تدريجيا الى اقتبال التجسد وكان عمله شبيهاً بعمل المربي الحكيم الذي يهيء للطفل الظروف المؤاتية كي يرقى مراحل النمو الواحدة تلو الاخرى حتى يصل الى البلوغ . وقد ظهرت هذه التربية الالهية لحرية الانسان خاصة في الشعب الاسرائيلي الذي بقي وحده بين الشعوب اميناً لله رغم خطاياه الكثيرة . ففيه خاصة هيأ الله البشر الى اقتبال التجسد حتى اذا تم يحمل افراد من هذا الشعب بشارته الى العالم اجمع . وقد اتخذت هذه التهيئة وجوهاً مختلفة منها :

١ — الناموس

وهو مجموعة شرائع اعطيت الى الشعب الاسرائيلي بوحي من الله . وقد قال عنه الرسول بولس : « فالناموس اذاً كان مؤدبنا يرشدنا الى المسيح » (غلاطية — ٣ : ٢٤) والمؤدب كان عند اليونان عبدا موكولا اليه ان يصحب الاولاد المؤتمن عليهم ويسهر عليهم ويلقنهم مبادىء المعرفة ليتمكنوا فيما بعد من استماع دروس يلقيها معلم شهير . تلك كانت وظيفة الناموس بالنسبة الى اليهود . فالوصايا العشر مثلا كانت غايتها تهذيب اخلاق الناس كي يعدوا

للدخول في ملكوت المحبة . اما الذبائح التي كان يفرضها الناموس للتكفير عن الخطايا فقد كانت رمزا يشير الى الذبيحة الحقيقية الواحدة وهي موت يسوع المسيح على الصليب .

٢ — الحوادث التاريخية

وقد كانت حوادث تاريخ الشعب اليهودي ترمز الى حوادث الخلاص وتعد الشعب لاقتبال التجسد . فيوسف الذي باعه اخوته حسدا وصار كما قال الكتاب عنه «مخلص العالم» اثناء المجاعة التي حصلت ، كان رمزا للمسيح الذي اسلم حسدا من اليهود اخوته بالجسد الى الرومانيين لكي يميتوه فصار بالمعنى الكامل «مخلص العالم» مطعما الناس ليس خبزا ماديا كما فعل يوسف بل الخبز السماوي الذي هو جسده . كذلك خلاص الشعب الاسرائيلي من عبودية فرعون على يد موسى ودخوله في ارض الميعاد على يد يشوع الذي هو اسم يسوع بالذات ومعناه الله يخلص، كان رمزا لخلاص المؤمنين من عبودية الشيطان بتجسد المسيح وموته ودخولهم الى ملكوت الله .

٣ — الانبياء

كذلك ارسل الله انبياء الى شعبه على ممر الاجيال لتهيئته لاقتبال التجسد . والنبي كما يدل اسمه كانت مهمته ان ينبيء بارادة الله اي ان يعلنها بقوة داعيا البشر الى تقويم ما اعوج من سيرتهم والى الرجوع الى الله . هؤلاء الانبياء اعدوا الشعب اليهودي لاقتبال التجسد :

أ — لانهم كانوا يحركون الضمائر النائمة المتحجرة ويقولون جهرا للناس ان تتميم الشريعة في الظاهر لا يهم ، انما المهم تغيير القلب واعطاؤه لله ، وهكذا كانوا يمهدون طريق الله الآتي الى العالم .

ب — لانهم كانوا يشيرون ، بالهام الهي ، الى تجسد ابن الله والى اعمال الخلاص التي سوف يقوم بها في ارضنا . هكذا تحدث النبي

اشعياء الذي عاش في القرن الثامن قبل الميلاد عن البيت الذي يولد منه المسيح ، فقال انه سيكون من نسل داود : « ويخرج قضيب من جذع يسى (وهو ابو داود) وينبت غصن من اصوله ويحل عليه روح الرب » (اشعياء ١١ : ١ و ٢) .

واعلن النبي نفسه انه يولد من عذراء : « هوذا العذراء تحبل وتلد ابنا ويدعون اسمه عمانوئيل الذي تفسيره الله معنا » (اشعيا ٧ : ١٤) .

وتنبأ النبي ميخا الذي عاش هو أيضا في القرن الثامن قبل الميلاد عن مكان ولادة المخلص فقال : «وانت يابيت لحم افراتا انك صغيرة في الوف يهوذا ولكن منك سوف يخرج لي من يكون متسلطا على اسرائيل ومخارجه منذ القديم منذ ايام الأزل » (ميخا ٥ : ٦) .

وتحدث النبي اشعياء عن رسالة المخلص : « روح الرب عليّ لان الرب مسحني لابشر المساكين وارسلني لاجبر المنكسري القلوب وانادي بعتق للمسبيين وبتخلية للمأسورين لانادي بسنة الرب المقبولة وبيوم انتقام الهنا واعزي جميع النائحين » (اشعياء ٦١ : ١ و ٢)

كذلك اعلن اشعياء عن الآلام التي سوف يتحملها المخلص من اجل خطايا الناس : « جرح لاجل معاصينا وسحق لاجل آثامنا . فتأديب سلامنا عليه وبجراحه شفينا . كلنا ضللنا كالغنم ، كل واحد مال الى طريقه ، فالقى الرب عليه اثم كلنا » (اشعيا ٥٣ : ٥ — ٧) .

اسئلة

١ – ألم يكن التجسد مبادرة حب مجانية من قبل الله؟ (انظر ١يوحنا ٤ : ٩ و ١٠)

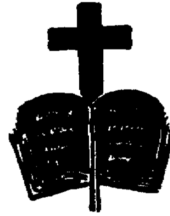
٢ – ولكن المحبة لا تفرض فرضاً ، كان إذاً على الإنسان أن يتقبل مبادرة الحب هذه . فكيف أعده الله لاقتبال التجسد ؟

٣ – ما هو الناموس ؟ وماذا كان دوره في تهيئة التجسد ؟ (أنظر غلاطية ٣ : ٢٤) كيف تمم دوره هذا ؟

٤ – كيف كانت حوادث تاريخ الشعب اليهودي تشير إلى حوادث الخلاص ؟ كيف تشير إليها قصة يوسف ؟ كيف يشير إليها خلاص الشعب الإسرائيلي من عبودية فرعون ودخوله أرض الميعاد ؟

٥ – من هم الأنبياء ؟ كيف هيأوا الناس لاقتبال التجسد ؟ هل أشاروا إلى ظروف التجسد وإلى أعمال الخلاص ؟

مثلا : إلى أصل المسيح بالجسد ؟ (أنظر أشعياء ١١ : ١ و ٢)
إلى ولادته من العذراء ؟ (أنظر أشعياء ٧ : ١٤)
إلى البلدة التي ولد فيها ؟ (أنظر ميخا ٥ : ٦)
إلى رسالته الخلاصية ؟ (أنظر أشعياء ٦١ : ١ و ٢)
إلى آلامه ؟ (أنظر أشعياء ٥٣ : ٥ – ٧)



دور العذراء في التجسد

«تجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء». قلنا ان الله صمم في محبته ان ينحدر الى الانسان ليخلصه. الا انه – وهو يحترم حرية الانسان – كان منتظرا ان يريد الانسان خلاصه ، ان يشاء اقتبال الاله المنحدر اليه . ولذا فقد هيأ الله الانسانية تدريجيا الى اقتبال الخلاص . وقد ادت هذه التهيئة الى العذراء مريم . فمريم هي زهرة العهد القديم وثمرة عناية الله بشعبه وتربيته له على مر الاجيال . ففي مريم بلغت قداسة العهد القديم ذروتها في الايمان والتواضع والطاعة لله . لذلك في شخص مريم استطاعت البشرية ان تقول «نعم» لله وان تتقبله مخلصا لها ، هذا ما تم عندما اجابت مريم الملاك : « ها انا امة للرب فليكن لي حسب قولك » (لوقا ١ : ٣٨). عندئذ تم تجسد ابن الله لان البشرية « سمحت » له بشخص مريم ان يأتي اليها ويخلصها . لذلك كتب اللاهوتي الارثوذكسي نقولا كباسيلاس : « ان التجسد لم يكن فعل الآب وقدرته وروحه فحسب ، ولكنه ايضا فعل ارادة العذراء وايمانها . فبدون قبول الكلية النقاوة ، بدون مساهمة ايمانها ، لكان تحقيق هذا المقصد متعذرا ... ».

هكذا كانت مريم ذلك « الباب المتجه نحو المشارق » الذي تحدث عنه النبي حزقيال والذي عبر به الرب (حزقيال ٤٤ : ١ – ٣) وكما تنشد الكنيسة « هي وحدها ادخلت المسيح وحده الى المسكونة لخلاص نفوسنا » (خدمة عيد ميلاد السيدة) . ففي مريم تمّ اولا الاتحاد بين الله والانسان ، اذ ان ابن الله أتحد ذاته بجسد اتخذه من جسد مريم . بهذا المعنى تتلو الكنيسة في صلاة النوم مخاطبة العذراء : « بمولدك اتحد كلمة الله بالبشر وطبيعة جنسنا المقصاة اقرنتها مع السماويين » .

وتدعو الكنيسة العذراء « والدة الاله » لأنها ولدت الاله المتجسد . وبذلك تردد ما قالته اليصابات بوحي الروح القدس عندما زارتها نسيبتها العذراء مريم اذ « امتلأت اليصابات من الروح القدس فصاحت بصوت جهير وقالت : ... من اين لي هذا ان تأتي ام ربي الي ؟ » (لوقا ١ : ٤١ — ٤٣) . وتعتقد الكنيسة ان منزلة العذراء تفوق منزلة الملائكة اذ قد اهلت ان تحمل في ذاتها ابن الله المتجسد فتصير هكذا هيكلاً حيا للاله الذي « لا تجسر طغمات الملائكة ان تنظر اليه »، لذلك تخاطبها منشدة : « يا من هي اكرم من الشاروبيم وارفع مجدا بغير قياس من الساروفيم » وايضا : « لانه صنع مستودعك عرشا وجعل بطنك ارحب من السماوات » (قداس باسيليوس).

وهكذا فتكريم الكنيسة الارثوذكسية للعذراء مريم يعود خاصة للدور الذي لعبته في التجسد . لذا فالاسم الذي تطلقه عليها باستمرار هو اسم « والدة الاله » . ولذلك ايضا عندما تمدحها تمدح بنوع خاص ذلك الدور الذي شاء الله ان يسنده اليها في مقاصده : « افرحي يا من ولدت مرشد الضالين ، افرحي يا من ولدت منقذ المأسورين» (خدمة المديح) . وللسبب عينه لا تمثل الايقونات الارثوذكسية ابدا العذراء وحدها بل تمثلها دوما حاملة ابنها والهها . فمجد والدة الاله مستمد من ذاك الذي شاء ان يولد منها ، من ذاك الذي اعطته للعالم . والعذراء نفسها في حياتها الارضية لم تشأ ان تبرز شخصيتها بل كانت دائما متخفية وراء ابنها والتعليم الوحيد الذي نقله الينا الانجيل عن لسان العذراء انما هو وصيتها للبشر بان يطيعوا ابنها : « مهما يأمركم به فافعلوه » (يوحنا ٢ : ٥) .

وتعتقد الكنيسة ان العذراء بما انها صارت اما للاله المتجسد ، فقد اصبحت ايضا اما لكل الذين صار ذاك الاله اخا لهم بالتجسد : « لا يستحي ان يدعوهم اخوة ... اذن اذ قد اشترك الابناء في

الدم واللحم اشترك هو كذلك فيهما » (عبرانيين ٢ : ١١ و ١٤) . وبنوع خاص اماً للذين اصبحوا بايمانهم تلامذة احباء له . فعندما كان يسوع على الصليب خاطب مريم قائلا لها عن التلميذ الحبيب : « هوذا ابنك » ثم خاطب يوحنا قائلا : « هوذا امك » (يوحنا ١٩ : ٢٦ و ٢٧) فهذه العبارات يصح اطلاقها على كل تلميذ حبيب ليسوع اي كل مؤمن به . لذلك فلوالدة الاله نحونا حنان الام ولهفتها . في عرس قانا الجليل تحسست مريم لحاجة اهل البيت وضمت شعورها بهذه الحاجة الى شعور ابنها قائلة له : « ليس عندهم خمر » فلباها الرب وصنع من اجلها معجزته الاولى مع ان ساعته لم تكن قد اتت بعد (يوحنا ٢ : ٣ و ٤) . هكذا تتحسس مريم لحاجاتنا وشفاعتها هي ان تضم حنوها علينا الى حنو ابنها . وهذه الشفاعة قوية كما يظهر من حادثة عرس قانا الجليل وكما تنشد الكنيسة « ليس احد يسارع محاضرا اليك ويمضي خازيا من قبلك ايتها البتول النقية ام الاله » (قانون الباركليسي) . ولكن النعمة التي تطلبها لنا العذراء بنوع خاص هي ان يتصور ابنها فينا حتى نحمله نحن في كياننا كما حملته هي ونتحد به كما اتحدت به هي .

اسئلة

اقرأ لوقا ١ : ٢٦ – ٥٦ ويوحنا ٢ : ١ – ١١ و ١٩ : ٢٥ – ٢٧ .

١ – هل كان ممكناً أن يتم التجسد لو لم يقبل الإنسان به ؟ لماذا لا ؟

٢ – ما هي – والحالة هذه – أهمية عبارة العذراء في لوقا ١ : ٣٨ ؟

٣ – كيف يمكننا إذاً أن نقول إن العذراء كانت ثمرة تربية الله للإنسانية في العهد القديم ؟

٤ – كيف تفهم قول اللاهوتي الأرثوذكسي نقولا كاباسيلاس بان العذراء جعلت التجسد ممكناً ؟

٥ – كيف يمكننا أن نقول إن اتحاد الله بالبشر تم أولاً في شخص مريم ؟ ألا يتضح ذلك من قول الكنيسة لمريم : « لقد أقرضت جسداً للكلمة البارىء الكل» ؟

٦ – لماذا تدعو الكنيسة العذراء « والدة الاله» ؟ ألا تستند هذه التسمية إلى نص الإنجيل ؟(أنظر لوقا ١ : ٤١ – ٤٣)

٧ – أليس تكريم الكنيسة الأرثوذكسية للعذراء يعود خاصة للدور الذي لعبته في التجسد ؟ كيف يتضح ذلك في صلوات الكنيسة وفي الأيقونات التي ترسمها ؟ ألا ينسجم ذلك مع موقف العذراء نفسها كما يتضح في الإنجيل (أنظر يوحنا ٢ : ٥)

٨ – ألم يصبح ابن الله أخاً لنا بالتجسد ؟ (أنظر عبرانيين ٢ : ١١ و ١٤). كيف يصح والحالة هذه أن نعتبر العذراء أماً لنا ؟

٩ – ألم يعط يسوع أمه « أماً » لكل « تلميذ حبيب » ؟ (أنظر يوحنا ١٩ : ٢٥ – ٢٧)

١٠ – كيف تجلت شفاعة العذراء في الإنجيل ؟ (أنظر يوحنا ٢ : ١ – ١١)



شخص يسوع المسيح

ان الاله المتجسد سمي يسوع المسيح . اما « يسوع » فهي كلمة عبرانية معناها « الله يخلص » . وقد اطلق هذا الاسم على ابن الله المتجسد نظرا للمهمة الخلاصية التي اتى ليقوم بها . لذلك قال الملاك لمريم عندما بشرها : « ها انت تحبلين وتلدين ابنا وتسمينه يسوع » (لوقا ١ — ٣١) والملاك الذي ظهر ليوسف قال له متكلما عن العذراء : « ستلد ابنا فتسميه يسوع لانه هو الذي يخلص شعبه من خطاياه » (متى ١ : ٢١) . اما كلمة «المسيح» فتعني الممسوح . وقد كان الانبياء والملوك والكهنة في العهد القديم يمسحون بزيت مقدس ينالون بواسطته نعمة لاتمام رسالتهم ، ولذلك كانوا يدعون مسحاء الرب . ولكن هؤلاء لم يكونوا سوى صورة ورمز ليسوع الذي هو وحده مسيح الرب بالمعنى الكامل أي انه مُسح ليس بزيت ولكن بملء مواهب الروح القدس الذي حلّ على انسانيته فجعل منه نبيا انبأ بحقيقة الله كاملة وكاهنا قدم الذبيحة الوحيدة المقبولة عن خطايا البشر الا وهي ذبيحة ذاته وملكا يملك الى الابد على البشرية المؤمنة به .

وتعتقد الكنيسة الارثوذكسية ان للمسيح طبيعتين : الهية وانسانية متحدتين في شخص واحد،شخص ابن الله المتجسد وان هذا الاتحاد قائم بدون انقسام او انفصال او تحول او اختلاط ، اي أنّ كلا من هاتين الطبيعتين تحتفظ بصفاتها الخاصة ، فلا تفقد الطبيعة الالهية صفاتها الالهية ولا تفقد الطبيعة الانسانية صفاتها الانسانية (بدون تحول او اختلاط) ولكنهما متحدتان في شخص واحد (بدون انقسام او انفصال) . واذا اردنا صورة توضح هذا المعتقد ، فلنأخذ الحديد المحمي بالنار ، فالحديد لم يزل حديدا والنار نارا

ولكن ليس هناك انفصال بين النار والحديد اذ هما مجتمعان في قطعة الحديد المحمي .

وبعبارة اخرى تعتقد الكنيسة ان يسوع المسيح اله تام وانسان تام ، اله حقيقي وانسان حقيقي ، ولكنه شخص واحد لان ابن الله ضم الطبيعة الانسانية الى لاهوتــه وجعلها وهــذا اللاهوت شخصا واحدا ، شخص الاله المتجسد . وقد كان هذا التدبير الالهي ضروريا للخلاص . لانه لوكان المسيح الها فقط ولو كانت انسانيته مجرد وهم وخيال فكيف كان دخل اللاهوت الى صميم البشرية ليقدسها ؟ ولو كان المسيح انسانا فقط فكيف يكون جسرا به تنقل الى الانسانية الحياة الالهية نفسها ؟ ولو كان اللاهوت والناسوت في المسيح منفصلين فكيف يتم بين الله والانسان ذلك الاتحاد الصميمي الذي به تتجدد الانسانية وتتأله ؟ هذا الاعتقاد القويم في شخص المسيح شرط اساسي اذاً لندرك الخلاص الذي منحنا الرب اياه . كما انه حجر زاوية في حياتنا الروحية ، لانه اذا كان اللاهوت قد اتحد بالناسوت في شخص المسيح دون ان يبطل هذا الناسوت ، فذلك يعني انه يمكننا ان نتحد بالله ونتأله دون ان تذوب انسانيتنا وتمحى . وهكذا يمكننا ان نفهم اهمية الجهاد الذي جاهدته الكنيسة لتحفظ عبر الاجيال الاعتقاد القويم في شخص المسيح ضد كل البدع التي حاولت ان تشوه هذا الاعتقاد .

المسيح شخص واحد

فقــد ظهرت في القرن الخامس بدعة نادى بها نسطوريوس علمت ان في المسيح شخصين احدهما الهي والآخر انساني غير ملازمين بالضرورة احدهما للآخر . وقالت بأن المسيح عندما ولد كان انسانا محضا ثم سكنت فيه الالوهة كما في هيكل ولازمته الى حين صلبه ، حينئذ فارقته فلم يكن على الصليب سوى انسان

متألم . ولذلك كان اتباع هذه البدعة يسمون العذراء مريم « والدة المسيح » وليس « والدة الاله » . ولكن هذه البدعة النسطورية التي تشق شخص المسيح الواحد مخالفةٌ لتعليم الكتاب المقدس . فقد حيّت اليصابات مريم الحبلى بيسوع قائلة لها : « من اين لي هذا ان تأتي ام ربي الي ؟» ، وهذا الكلام الموحى به من الروح القدس (لان اليصابات قالته وهي ممتلئة من الروح القدس) يعني ان مريم مزمعة ان تلد ليس مجرد انسان بل الرب نفسه . كذلك المسيح المتألم والمهان على الصليب لم يزل حتى في تلك اللحظات ايضا الها ، كما يتضح من قول الرسول بولس : « لو عرفوا لما صلبوا رب المجد » (١ كورنثوس ٢ : ٨) فالمصلوب هو اذاً بالوقت نفسه رب المجد. كذلك تحدث الرسول نفسه عن «كنيسة الله التي اقتناها بدمه » (اعمال ٢٠ : ٢٨) : فالدم الذي سفك على الصليب لم يكن مجرد دم انسان انما كان دم الله نفسه . وقد اجتمع المجمع الثالث المسكوني في افسس سنة ٤٣١ لدحض هذه البدعة ، فاثبت ان المسيح شخص واحد غير متجزىء .

في طبيعتين

وكرد فعل للبدعة السابقة ، ظهرت في القرن الخامس ايضا بدعة معاكسة نادى بها افتيشيس (او اوطيخا) تقول بأن الطبيعة الالهية في المسيح قد ابتلعت الطبيعة الانسانية ولذا فالمسيح ليس فقط شخصا واحدا ، كما تقول الارثوذكسية ، بل طبيعة واحدة ايضا وهي الطبيعة الالهية التي ذابت فيها الطبيعة الانسانية . ولذا دعيت هذه البدعة « بدعة الطبيعة الواحدة » . وقد حكم عليها المجمع الرابع المسكوني المنعقد في خلقيدون سنة ٤٥١ ، وأثبت أن يسوع ليس فقط إلهاً تاماً ولكنه أيضاً إنسان تام ، إنسان بالحقيقة وليس بالمظهر والخيال .

(حاشية : القول بالطبيعتين حدده المجمع المسكوني الرابع المنعقد سنة ٤٥١ في خلقيدون (آسيا الصغرى) والذي لم تأخذ به الكنائس الشرقية القديمة (السريان ، الأقباط ، الأحباش لأ ، ارمن) . إن هذه الكنائس ترفض عبارة الطبيعتين ولكنها تكفر بآن اوطيخا القائل بذوبان الطبيعة الإنسانية بالطبيعة الإلهية . فيكون الاختلاف فيما بيننا وبينها اختلافاً لفظياً لا يمس جوهر العقيدة .)

وهذا ما يتضح جلياً في الإنجيل كله إذ نرى فيه يسوع قد ولد كإنسان ونما وترعرع وكان يجوع ويعطش ويفرح ويتألم ويبكي وقد مات ودفن كإنسان . وكما كان يتكلم كإله قائلا : « أنا والآب واحد » (يوحنا ١٠ : ٣٠) ، كان يتكلم أحياناً كإنسان قائلا : « إنني منطلق إلى أبي وأبيكم **والهي والهكم**» (يوحنا ٢٠ : ١٧) وفي الظرف نفسه كان يتصرف كإله وإنسان مظهراً بذلك أن الطبيعتين الإلهية والإنسانية قائمتان كلاهما في شخصه الواحد. فمثلا كإنسان تعب وعطش وطلب من السامرية أن تسقيه ماءو كإله كشف لها خفايا حياتها . كإنسان بكى على لعازر وسأل أين وضعوه وكإله أقامه من الأموات . ولذا كتب يوحنا : « **والكلمة صار جسدا** » (يوحنا ١ : ١٤) وورد في الرسالة إلى العبرانيين « **إذ اشترك** البنون في اللحم والدم **اشتركهو ايضا فيهما** » (عبرانيين ٢ : ١٤) .

بمشيئتين

ولما استفحل الخلاف بين الارثوذكس وأتباع الطبيعة الواحدة ، أراد البعض ، بضغط من الأمبراطور ، أن يوفقوا بين وجهتي النظر ، فاستعاضوا عن عبارة « طبيعة واحدة » بعبارة « مشيئة واحدة » قائلين إن في المسيح طبيعتين ولكن المشيئة الإنسانية فيه ذابت في المشيئة الإلهية . ولكن المجمع السادس المسكوني المنعقد سنة ٦٨٠ في القسطنطينية دحض هذه البدعة الجديدة مثبتاً

أن للمسيح إرادة إنسانية تتميز عن الإرادة الإلهية . فالإرادة الإلهية في المسيح هي إرادة الآب عينها : « أنا والآب واحد » (يوحنا ١٠ : ٣٠) أما الإرادة الإنسانية فيه فقائمة بذاتها ولكن المسيح بحريته أخضعها طيلة حياته وحتى الموت ، موت الصليب ، لإرادة الآب . هذا ما يتضح في قول الرب « لا أطلب مشيئتي بل مشيئة الآب الذي أرسلني » (يوحنا ٥ : ٣٠) . فللمسيح إذاً كإنسان مشيئة متميزة عن مشيئة الآب ولكنه بحريته يرفض أن يدعها تختلف عن مشيئة الآب . وهذا ما يظهر أيضاً عندما صلى في بستان الجسمانية : « يا أبتاه إن شئت أن تعبر عني هذه الكأس » (متى ٢٦ : ٣٩) (وهنا ظهرت مشيئته الإنسانية بأن يعفى من الآلام) ولكنه أردف قائلا : « ولكن لتكن مشيئتك وليس مشيئتي » (متى ٢٦ : ٣٩) (وهنا أخضع إرادته الإنسانية خضوعاً كاملا للمشيئة الإلهية) .

ولكون الإرادة الإنسانية في المسيح متميزة عن الإرادة الإلهية لذلك كان من الممكن أن تجرّب بالاستقلال عن الإرادة الإلهية . وبالفعل جُرِّب المسيح لكي يصبح لنا شبيهاً بكل شيء حتى بتجاربنا . وقد روى لنا الإنجيل تجربتين حدثتا له إحداهما هي تجربته في البرية بعد صيامه (متى ٤ : ١ — ١١) والثانية تجربته برفض الآلام (متى ٢٦ : ٣٩) . ولا بد أن يسوع مرّ بتجارب أخرى طيلة حياته ولكنه كان دائماً باختياره يخضع إرادته الإنسانية لإرادة الآب وهكذا لم يرتكب خطيئة مع أنه شابهنا بكل شيء . لذا استطاع أن يتحدى أعداءه سائلا إياهم بجرأة لا يقوى إنسان عليها : « من منكم يوبخني على خطيئة ؟ » (يوحنا ٨ : ٣٦) ، لذلك أيضاً استطاع أن يقول لتلاميذه قبل آلامه : « لأن رئيس هذا العالم يأتي (أي الشيطان) وليس له فيّ شيء » (يوحنا ١٤ : ٣٠) ، وبهذا المعنى أيضاً كتب عنه الرسول بطرس : « إنه لم يعمل خطيئة ولا وجد في فمه غش » (١ بطرس ٢ : ٢٢) .

هكذا شاء الإله المتجسد أن يتخذ إرادة بشرية تامة لكي يجدد من الداخل إرادتنا الإنسانية المنفسدة وشاء أن يمر بتجاربنا كي يعطينا قوة التغلب علـى التجـارب .

اسئلة

١ – من الذي أطلق على الإله المتجسد اسم « يسوع » ؟ (أنظر لوقا ١ : ٣١ ومتى ١ : ٢١) وما معنى هذه الكلمة ؟

٢ – من هم « مسحاء الرب » في العهد القديم ؟ ما العلاقة بين تسميتهم « بمسحاء » وتسمية يسوع « بالمسيح » . ؟

٣ – ما معنى قول الكنيسة الأرثوذكسية بأن للمسيح طبيعتين « بدون انقسام أو انفصال أو تحول أو اختلاط » ؟ كيف يعطينا الحديد المحمي بالنار صورة عـن ذلك ؟

٤ – ما هي أهمية هذه العقيدة لفهمنا الخلاص ؟

٥ – هل تعلم شيئاً عن البدعة النسطورية وعن المجمع الذي حكم عليها ؟ كيف يفهم من الكتاب المقدس أن الألوهة في المسيح ملازمة للناسوت منذ الحبل به ؟ (انظر لوقا ١ : ٤٣) وفي حين آلامه وصلبه ؟ (أنظر ١ كورنثوس ٢ : ٨ وأعمال ٢٠ : ٢٨) . هل يمكن أن نفهم الخلاص إذا لم نعتقد أن الألوهة في المسيح متحدة اتحاداً صميماً بناسوته ؟

٦ – هل تعلم شيئاً عن بدعة « الطبيعة الواحدة » وعن المجمع الذي حكم عليها ؟ كيف يظهر من الإنجيل أن المسيح إنسان تام وان طبيعته الانسانية لم تذب وتضمحل في الطبيعة الإلهية ؟ هل تذكر حوادث إنجيلية يتصرف فيها المسيح في الظرف الواحد تارة كإلـه وطوراً كإنسان ؟ (أنظر مثلا حادث السامرية يوحنا ٤ : ٥ – ٤٢ وحادث إقامة لعازر يوحنا ١١ : ١ – ٤٤). ألا تظهر هذه الحوادث أن الطبيعتين الإلهية والإنسانية قائمتان كلاهما ومتميزتان إحداهما عن الأخرى في شخص المسيح الواحـد ؟

٧ – هل تعلم شيئاً عن بدعة « المشيئة الواحدة » وعن المجمع الذي حكم عليها ؟ كيف يظهر من الإنجيل أن في المسيح مشيئتين وكيف تظهر العلاقة بينهما ؟ (أنظر يوحنا ٥ : ٣٠ ومتى ٢٦ : ٣٩) . ألا ينتج عن ذلك أنه كان ممكناً أن يجرب المسيح ؟ ألم يذكر الإنجيل أنه جرب بالفعل ؟ (أنظر متى ٤ : ١ – ١١ و متى ٢٦ : ٣٩) ولكن هل ارتكب المسيح خطيئة أي مخالفة للإرادة الإلهية ؟ (أنظر يوحنا ٨ : ٣٦ ويوحنا ١٤ : ٣٠ و ١ بطرس ٢ : ٢٢) . مـا معنى اتخاذ الإله المتجسد إرادة إنسانية تامة وقبوله باحتمال التجارب ، بالنسبة لخلاصنـا ؟

ملحـــق

عاش القديس اثناسيوس الاسكندري في القرن الرابع واشترك في المجمع المسكوني الاول سنة ٣٢٥ اذ كان مساعدا لبطريـــرك الاسكندرية آنذاك اسكندر ٠

عقد هذا المجمع للنظر في تعليم آريوس الذي انكر الوهة الابن فاقر بطلان هذا التعليم ٠ ثم انتخب القديس اثناسيوس بطريركـــا على الاسكندرية واستمر يعلم الايمان المستقيم في عظاته ورسائلـــه ويدحض التعاليم الاريوسية :

ان طابع الكتاب المقدس وغايته هما كمـــا قلت لكم مرارا التبشير بعقيدتين خاصتين بالمخلص ٠

انه اله منذ الازل وهو الاقنوم الثاني اي الابن وهو مجـــد الآب وحكمته بصفته الكلمة ٠

وفي الزمن اخذ الابن جسدا من العذراء مريم والدة الاله وصار انسانا من اجلنا ٠

وحينما نتصفح الكتاب المقدس نجد في العهد القديم التعاليم الخاصة بالكلمة وفي العهد الجديد اي الانجيل نجد الاله المتجسد « لان الكلمة صار جسدا وحل فينا » هكذا كتب يوحنا الرسول فـي بـــدء انجيله ٠

انه صار انسانا ولم يحل في انسان ، وينبغي ان نعرف ذلـك جيدا حتى لا نسقط في ضلال جديد ٠ فهناك قوم يمكنهم ان يفكروا هكذا قائلين : في قديم الزمان كان الكلمة يأتي في كل واحـــد من القديسين ٠ وقد اتى الان ايضا بالطريقة نفسها في انسان ٠ وجعلـه هو ايضا قديسا بظهوره فيه كما ظهر في الآخرين ٠

لو كان الامر كذلك ، اي لو ان تجسد الكلمة كان على نحو ظهوره في القديسين ، لما كان هناك اي عجب ، ولما تساءل اولئـك الذين شاهدوه وعاينوه قائلين : من اين اتى هذا ؟ ولما اضافوا : كيف وانت انسان تجعل نفسك الها ؟ (يو ١٠ : ٣٣) ٠

في الحقيقة ان كلمة الله الذي به كان كـــل شيء ، رضى ان يصير انسانا ، وتواضع على حد تعبير بولس الرسول الـــذي قال عنه : اخذ صورة العبد ٠ ولذلـــك صار الصليب موضـوع شك لليهـــود ٠

اما بالنسبة لنا فالمسيح هو قوة الله وحكمته (اكو ١ : ٢٢و٣٤)
وقال يوحنا الرسول : والكلمة صار جسدا ٠

في الزمن السابق كان الكلمة يأتي في القديسين ويقدس اولئك الذين يقبلونه باحترام ٠ ولكنه لم يصر واحدا معهم ٠ ولم يقل احد عنهم عند ميلادهم : ان الكلمة صار جسدا ٠ وعندما تألموا لم يقل احد عنهم : ان الكلمة قد تألم ٠

ولكن حينما اتى الكلمة على الارض مولودامن مريم ، ولان الآب « رأى ان يرسل ابنه بالطبيعة مولودا من امرأة » (غلا ٤:٤) حينئذ قيل عنه: انه اخذ جسدا وصار انسانا ٠ وفي هذا الجسد تألم من اجلنا كما يقول بطرس الرسول : ان المسيح تألم من اجلنا في جسده (٣ بط ٢ : ٢٤ و ١:٤) ليظهر للجميع ويجعلهم يؤمنون انه اله منذ الازل ، ويقدس اولئك الذين يأتي فيهم ٠ وهو يعمل كل شيء حسب ارادة ابيه ٠ وفي الزمن صار هو ذاته انسانا من اجلنا٠ وكما يقول بولس الرسول : سكن اللاهوت جسميا في جسده (كولوسي ٩:٢) وكأننا نقول : واذ هو اله أخذ جسده ذاته واستعمله كآلة ، وصار انسانا من أجلنا ٠

ولذلك امتلك كل ما يخص الطبيعة البشرية : أي الجوع والعطش والالم والتعب وما شابه ذلك مما يتعرض له الانسان ٠ وكذلك الاعمال الخاصة بالكلمة : كأقامة الموتى وشفاء المرضى ٠ وكان يقوم بها بواسطة جسده ذاته ٠ وهكذا احتمل الكلمة امراض الجسد وعاهاته ٠ لان الجسد كان جسده ٠ وكان جسده مشتركا في أعمال الوهته ٠ لان الالوهة كانت في الجسد ، ولان هذا الجسد كان لله ٠

أجل فان الرب حينما قبل ان يلبس الطبيعة البشرية ، لبسها كاملة ولبسها بعاهاتها ٠

من ذا الذي لا يعجب لذلك ؟ من ذا الذي لا يعتبر ذلك عملا الهيا ؟ نعم فلو لم تتم اعمال الوهة الكلمة في الجسد ، لما استطاع الانسان ان يشترك في الالوهة ٠

انما الآن كما ان جميع من يولدون من الارض يموتون في آدم ٠ فانهم كذلك ايضا يجددون من فوق بالماء والروح ٠ وكلنا نحيا في المسيح ٠ ولم يعد جسدنا مرتبطا بالارض ولكنه يتجلى بكلمة الله الذي صار جسدا بيننا ٠

القديس اثناسيوس الاسكندري

الفصل السادس

الفداء

« وصلب عنا على عهد بيلاطس البنطى وتألم وقبر وقام في اليوم الثالث على ما في الكتب . وصعد الى السماء وجلس عن يمين الآب » .

١ ــ الصليب

٢ ــ القيامة

٣ ــ اشتراكنا في الصليب والقيامة

٤ ــ الفداء ومحبة القريب

٥ ــ الصعود

الصليب

إن الفداء امتداد وتكملة لعمل التجسد . هذا الفداء الذي بلغ بالصليب قمته يمكن أن يُنظر إليه من ثلاث وجهات نظر :

١ ــ بالصليب حطّم المسيح حواجز أنانيتنا

٢ ــ بالصليب أخذ المسيح على ذاته خطيئتنا

٣ ــ بالصليب انتصر المسيح على الألم والموت بدخوله فيهما

١ ــ بالصليب حطّم المسيح حواجز أنانيّتنا

بالتجسد أصبح الله حاضراً في الإنسان ليجدده ويشفيه ويشركه في حياته الإلهيه . ولكن بقي أن يُزال الحاجز الذي أقامته الخطيئة في صميم الإنسان بينه وبين خالقه . هذا الحاجز هو كما رأينا انغلاق الإنسان ، انطواؤه على نفسه دون الله ، هو عبادة الانا التي حكمت على الإنسان بعزلة مميتة . كان ينبغي إذاً تحطيم هذا الحاجز لتتدفق في الإنسان حياة الله ، لأن الإنسان الممتلىء من ذاته لم يعد لله مكان فيه . لذلك عندما اتخذ ابن الله طبيعة الإنسان ، داوى أنانيتها بالانفتاح الكامل والعطاء الكامل اللذين حققهما في إنسانيته .

فإنه طيلة حياته على الأرض ، لم يرد أن يتمتع بالمجد الإلهي الذي كان كامناً فيه . فإنه « أخلى ذاته آخذاً صورة عبد » (فيليبي ٢ : ٧) . أخلى ذاته من التمتع بالمجد الإلهي وقبل طوعاً بوضع « العبد » . فضّل العطاء على التمتع ؛ ومع أن كل شيء كان في متناول يده ، أراد أن يبذل لا أن يأخذ ، « أن يَخْدُم لا أن يُخْدَم » (متى ٢٠ : ٢٨) إنه « لم يُرض نفسه » (رومية ١٥ : ٣) ولكن حياته كلها كانت قربانا لله الآب وللبشر الذي صار أخاً لهم . فقد ولد فقيراً في مذود البهائم وتشرد عند اضطهاد هيرودس له . وعاش معظم حياته عاملا مجهولا : « أليس هو النجار ، ابن مريم ؟ » (مرقس ٦ : ٣) . وطاف

يبشر فيما « لم يكن له موضع يسند إليه رأسه » (متى ٨ : ٢٠) . ورفض أن يصنع آية في السماء ليبهر بها البشر (متى ١٦ : ١ و ٤) ولكنه كان يصنع العجائب رأفة بالمعذبين و « يشفي كل ألم وكل سقم في الشعب » (متى ٤ : ٢٣) . وقد احتمل عدم إيمان الكثيرين ، حتى أقاربه الذين كانوا ينعتونه بالجنون وتلاميذه الذين لم يفهموا رسالته حق الفهم والذين تركوه كلهم وفروا حين تسليمه، وباعه أحدهم وأنكره آخر . وصبر على إهانات وشتائم واضطهادات أعدائه الذين كانوا ينعتونه « بأن به شيطاناً » (يوحنا ٨ : ٤٨) ولم يرد أن ينتقم منهم بل انتهر يعقوب ويوحنا عندما طلبا انزال نار من السماء لإحراق قرية رفضت أن تستقبله (لوقا ٩ : ٥١ — ٥٦) وزجر بطرس عندما أراد أن يدافع عنه بالسيف وصلى من أجل قاتليه . وأراد ، وهو المعلم والسيد ، أن يكون وسط تلاميذه كالخادم (لوقا ٢٢ : ٢٧) وأن يغسل أرجلهم (يوحنا ١٣ : ٤ و ٥) .

هذا العطاء الذي به أراد المسيح أن يستأصل أنانيتنا ، بلغ ذروته في الصليب . كان في وسع المسيح أن لا يموت بالنظر للاهوت الكامن فيه ، ولكنه ذهب في تخليه عن « الأنا » إلى أقصى الحدود ، باذلا ذاته للموت . وهكذا قدم حياته على الصليب قربان محبة للآب ، تعبيراً عن تخليه التام عن مشيئته الذاتية ، كما قال بنفسه في بستان الجسمانية : « لتكن مشيئتك وليس مشيئتي » (متى ٢٦ : ٢٥) وكما ورد عن لسانه في الرسالة إلى العبرانيين ، مخاطباً الآب : « ذبيحة وقرباناً لم تشأ، غير أنك هيأت لي جسداً، لم ترتض محرقات ولا ذبائح خطيئة ، حينئذ قلت : ها أنذا آتي — إذ عني قد كتب في رأس المصحف — لأعمل ، يا الله ، بمشيئتك » (عبرانيين ١٠ : ٥ — ٧) .

هكذا تمرد آدم ، فأطاع المسيح . تكبر آدم ، فتواضع المسيح . اكتفى آدم بذاته ، فتخلى المسيح عن ذاته « ووضع نفسه وصار طائعاً

حتى الموت أي موت الصليب » (فيليبي ٢ : ٨) . وهكذا بإنسانيته المبذولة ، المعطاة ، أعطى البشرية الدواء الشافي داء الأنانية الذي فصلها عن الله .

٢ – بالصليب أخذ المسيح على ذاته خطيئتنا

ومن وجهة نظر أخرى ، نرى أن الرب يسوع ، لكي ينقذنا من الخطيئة التي أصبحنا نئن تحت وطأتها ، شاء أن يأخذها على نفسه . لا أن يأخذها هي بل أن يحتمل في ذاته كل نتائجها المريعة حباً بنا . إن المحب يود لو أنه يستطيع أن يأخذ على نفسه مرض المحبوب ليخلصه من وطأته . ولكن ما لا يستطيع أن يفعله الحب البشري ، استطاع يسوع أن يتممه إذ أنه ، لأجل محبته لنا ، أخذ على نفسه مرضنا لينقذنا منه : « إنه أخذ عاهاتنا ، وحمل أوجاعنا » (أشعيا ٥٣ : ٤ و متى ٨ : ١٧) .

فإنه ، وهو البريء من كل خطيئة، أخذ على نفسه كل الشقاء الذي جرّته الخطيئة على الجنس البشري : فقد احتمل عارها وذلها ولعنتها والظلمة والعزلة والألم والموت هذا الذي نتج عنها . أراد أن يكون على الصليب محتقراً ، ذليلاً ، مهاناً « لا صورة له ولا جمال » (أشعيا ٥٣ : ٢) ، « رجل أوجاع ومتمرساً بالعاهات » (أشعيا ٥٣ : ٣) « مجروحاً من أجل خطايانا ومسحوقاً من أجل آثامنا » (أشعيا ٥٣ : ٥) ، « مزدرىً ومخذولا من الناس » (أشعيا ٥٣ : ٣) وكأنه متروك من الله نفسه « إلهي إلهي ، لماذا تركتني » (متى ٢٧ : ٤٦) حاصلا في ظلمة وحزن مميتين : « نفسي حزينة حتى الموت » (متى ٢٦ : ٣٨) .

هكذا تجسمت في المسيح – وهو لم يعرف خطيئة – كل مأساة خطيئة البشر : « كلنا ضللنا كالغنم ، كل واحد ضل في طريقه ، فألقى الرب عليه كل آثامنا » (أشعيا ٥٣ : ٦) وكأنه صار هو

« خطيئة » على حدّ تعبير الرسول بولس : « لأنه جعل الذي ليست فيه خطيئة **خطيئة** من أجلنا » (٢ كو ٥ : ٢١) .

وهكذا فإن يسوع المسيح على الصليب ظهر لله الآب مجسماً في جسده الجريح ، الممزق ، المختنق ، وفي نفسه المنسحقة ، بشاعة كل خطيئة البشر التي أخذها على نفسه فصار شفيعاً للخطأة أجمعين عندما وحّد ذاته معهم : « أفاض للموت نفسه وأحصي مع العصاة وهو حمل خطايا كثيرين وشفع في العصاة . » (أشعيا ٥٣ : ١٢) ذلك أن الله الآب لم يعد ينظر إلى الخطأة إلا من خلال هذه الصورة ، صورة ابنه الوحيد الحبيب المصلوب الذي جعل نفسه كواحد منهم . وبهذا المعنى يتابع الرسول : « لأنه جعل الذي ليست فيه خطيئة خطيئة من أجلنا**لكي نصير نحن ، به ، برّ الله** » (٢ كو ٥ : ٢١) أي أن الله تصالح مع البشر الخطأة وغفر خطاياهم وبررهم وضمهم إليه من خلال شخص الابن الحبيب الذي وحّد ذاته معهم .

هكذا كان الحمل الذي كان يذبح في الهيكل صباحاً ومساء تكفيراً عن خطايا الشعب رمزاً وإشارة إلى المسيح الذي قال عنه يوحنا المعمدان : « هوذا حمل الله الذي يرفع خطيئة العالم » (يوحنا ١ : ٢٩) .

٣ – بالصليب انتصر المسيح على الألم والموت بدخوله فيهما

وهناك أخيراً معنى ثالث بالغ الأهمية يتجلى في الصليب . لقد دخل البشر بالخطيئة في مملكة الموت (وبلغة الكتاب والآباء تُدعى « الجحيم ») وساد عليهم الحزن والألم والضعف والفناء . لقد أصبحوا كمن أغلق عليهم في سجن مظلم رهيب . لقد كان بإمكان الله أن يحررهم من الخارج ، بكلمة منه فقط ، بإرادته الفائقة . ولكن محبته دفعته أن يشارك البشر أولاً مصيرهم لكي يوحّد ذاته معهم . المحبة تدفع المحب إلى مشاركة المحبوب في آلامه ، هكذا محبة الله

« الجنونية » للإنسان ، كما نعتها كاباسيلاس ، لم تدفعه الى اجتياز الهوة الفاصلة بين الخالق والمخلوق وحسب — وهذا هو التجسد — بل الى مشاركته الآن في جحيم بؤسه .

فالإله الذي بتجسده «« شارك البنين في اللحم والدم » (عبرانيين ٢ : ١٤) شاء أن يصير شبيهاً في كل شيء بالبشر الذين اتخذهم أخوة له (عبرانيين ٢ : ١٧) ، أن يشاركهم أيضاً بكل ما تعرّض له هذا اللحم والدم ، من جراء الخطيئة ، من حزن وضيق وآلام وموت . هكذا اكتمل التجسد ودخل ابن الله إلى صميم الطبيعة الإنسانية ، مختبراً إياها بكل شقائها ، حتى يشعر الإنسان في حزنه وبؤسه ، في آلامه الجسدية والمعنوية ، في نزاعه وموته ، أنه محبوب ، وأن الله نفسه شاركه في ذلك كله . لقد جعل الله نفسه طريح الألم لكي لا يشعر الإنسان أنه يعانيه وحده بل برفقة الإله المتجسد الذي عاش آلام الإنسان في نفسه وجسده ، بمعية ذاك الذي كُتب عنه : « إذ أنه ، هو نفسه ، تألم وابتلي ، صار في طاقته أن يغيث المبتلين » (عبرانيين ٢ : ١٨) .

هكذا دخل يسوع ، حباً بالإنسان ، مملكة الموت التي كان غريباً عنها إطلاقاً ، ليس فقط من حيث ألوهته التي هي ينبوع الحياة ، بل من حيث إنسانيته أيضاً . فإنسانية يسوع لم تعرف الخطيئة البتة ولذلك فقد كانت بالكلية غريبة عن مملكة الموت ، ذلك الموت الذي انجرف إليه الإنسان بالخطيئة . مملكة الموت هي مملكة الشيطان الذي قتل الناس بالخطيئة ، ولم يكن للشيطان شيء في إنسانية يسوع البريئة من كل عيب ، ولذا قال يسوع لتلاميذه قبل تسليمه بقليل : « إن رئيس هذا العالم (أي الشيطان الذي تسلط على العالم بالخطيئة) يأتي (أي أن يسوع سوف يدخل بالموت إلى مملكته) وليس له فيّ شيء » (يوحنا ١٤ : ٣٠) . في تلك المملكة التي كان غريباً عنها بالكلية ، مملكة

الموت والشيطان الذي له « سلطان الموت » (عبرانيين ٢ : ١٤) ، دخل يسوع حياً بالإنسان سجين ذلك العالم الرهيب .

ولكن مملكة الموت لم يكن بوسعها أن تضبط سيد الحياة والقدّوس البريء من الخطأ . لذا كان دخول يسوع فيها مقدمة لتحطيمها وتحرير الإنسان منها . هكذا لما شاركنا الرب في الآلام والموت أعتقنا من الموت والآلام ، ولما أسلم ذاته لذلك العالم الرهيب الذي أوجدته الخطيئة ضرب قوى الخطيئة الكامنة فينا ضربة قاضية . عندما طرح نفسه في ظلمتنا ، أضاءها بنوره ، وعندما شاركنا في موتنا أعطانا حياته . هكذا تحققت نبوءة أشعيا التي رددها الإنجيل مطبقاً إياها على يسوع : « الجالسون في بقعة الموت وظلاله أشرق عليهم نور » (أشعيا ٩ : ٢ ومتى ٤ : ١٦) . هذا ما عبرّت عنه الرسالة إلى العبرانيين : « إذ قد اشترك البنون في اللحم والدم ، اشترك هو كذلك فيهما لكي يبيد بموته من كان له سلطان الموت ، أعني إبليس » (عبرانيين ٢ : ١٤) .

اسئلة

١ – كيف كان الصليب واسطة لتحطيم حواجز الانانية التي تفصل الانسان عن الله ؟ اليست قيمة الصليب هي في البذل الكامل الذي يعبر عنه ؟ (انظر متى ٢٦ : ٢٥ ، فيليبي ٢ : ٢٨ عبرانيين ١٠ : ٥ – ٧)

٢ – الم يكن بامكان المسيح ان يتمتع بالمجد الالهي الكامن فيه ؟ هل قبل بهذا التمتع ام اتبع طريق « افراغ الذات » (انظر فيليبي ٢ : ٦ و ٧ ورومية ١٥ : ٣) . بين انه اتبع هذه الطريق في كل مراحل حياته (انظر على سبيل المثل مرقس ٦ : ٣ ومتى ٨ : ٢٠ ويوحنا ٨ : ٤٨ ولوقا ٢٢ : ٢٧ ويوحنا ١٣ : ٤ و٥ ويوحنا ١٨ : ١١ ......) .

٣ – الا يشاء المحب ان يأخذ على نفسه مرض المحبوب ليخلصه من وطأته ؟ الم يفعل المسيح ذلك بالنسبة لنا ، نحن البشر الخطأة ؟ (انظر اشعيا ٥٣ : ٤ و ٦ ومتى ٨ : ١٧) . كيف تم ذلك على الصليب ؟ الم يكن المسيح عند ذاك – وهو لم يعرف خطيئة – مجسماً في ذاته كل مأساة الخطيئة (انظر اشعيا ٥٣ ومتى

٢٧ : ٤٦) ؟

٤ – الم يصبح المسيح هكذا شفيعاً للخطأة ؟ (انظر اشعيا ٥٣ : ١٢ و٢ كورنثوس ٥ : ٢١) . أليس ذلك لأن الله لم يعد ينظر الى الخطاة الا من خلال ابنه المصلوب الذي وحد نفسه معهم ؟ كيف تفهم على ضوء ذلك عبارة يوحنا المعمدان عن يسوع الواردة في يوحنا ١ : ٢٩ ؟

٥ – لقد دخل الانسان بالخطيئة في مملكة الشقاء والموت . الم يكن يسوع غريباً عن هذه المملكة ؟ لماذا قبل إذاً أن يدخل فيها بالصليب ؟ الا يدفع الحب إلى مشاركة المحبوب في آلامه؟ الم يكن دخول يسوع مملكة الموت قضاء مبرماً عليها ؟ (انظر عبرانيين ٢ : ١١ – ١٨ واشعيا ٩ : ٢ ومتّى ٤ : ١٦)

ملحـــق

القديس مكسيموس المعترف هو احد كبار معلمي الكنيسة • عاش راهبا في القرن السابع ودافع عن استقامة الراي بكتاباتـــه بجـرأة دفعت الامبراطور البيزنطي الذي كان يرعى بدعة المشيئـــة الواحدة ان يامر بقطع يده ولسانه ، فلقب هكذا بالمعترف ، لانه تالـــم من اجل الايمان • في المقطع الذي نثبته فيما يلي : يصف القـديس مكسيموس ، مستخدما صورا رمزية ، كيف انقذنا المسيح مـــن عبودية الشيطان بدخوله في مملكته بالموت •

« لقد علق السيد جسده الانساني كطعم بصنارة الوهته ، كأنه يريد بذلك ان يجتذب الشيطان • وبالفعل هذا التنين العقلي ، النهم الى جسد الانسان فغر فاه حول هذا الطعم ، حاسبا اياه ، مـــن جراء طبيعته الانسانية ، سهل المنال • وهكذا علق بصنارة الالوهة • بعد ذلك ارغمه جسد الكلمة المقدس ان يلفظ كليا الطبيعة الانسانيـة التي كان سبق فابتلعها • وهكذا فالذي كان قد اغوى الانسان مؤملا اياه بالتأليه وابتلعه على هذا المنوال ، اجتذب بدوره بجسد الانسان ذاته وارغم على لفظ ما كان قد ابتلعه • وهكذا تجلت القـــدرة الالهية بشكل ساطع : فقد انتصرت على قوة الغـــالب مستخدمـة بمثابة سلاح ضعف الطبيعة المغلوبة • منذ ذلك الحين اصبح اللـه الظافر بطبيعته الانسانية وليس الشيطان بوعده الانسان بالطبيعـــة الالهيـــة » •

مكسيموس المعترف : سر الخلاص

يسوع المسيح ، ابن الله الوحيد ، وحد ذاته مع البشر العصاة اذ احتمل بالصليب كل لعنة الخطيئة · و«احصي مع الاثمة» · لذلك اصبح للبشر الخطاة الدالة ان ينادوا الاب « ابانا » من خلال الابن الوحيد الذي صار واحدا منهم · هذا ما عبر عنه الشاعر باغي Péguy بالسطور التالية :

« ابانا الذي في السماوات ، لقد علمهم ابني هذه الصلاة ...

« ابانا الذي في السماوات ، لقد كان يعرف ماذا يصنع ، في ذلك اليوم ، ابني الذي كان يحبهم بهذا المقدار ·

« الذي عاش بينهم ، الذي كان واحدا مثلهم ·

« الذي كان يسير مثلهم ، ويتكلم مثلهم ، ويعيش مثلهم ·

« الذي كان يتألم ·

« الذي تألم مثلهم ، الذي مات مثلهم ...

« ابني الذي احبهم بهذا المقدار ، الذي يحبهم ابديا في السماء ...

« ابانا الذي في السماوات ، تلك الثلاث او الاربع كلمات ..

« تلك الكلمات التي تسير امام كل صلاة كما تسير يدا المتوسل امام وجهه ،

« كما ان يدي المتوسل المضمومتين تتقدمان امام وجهه ودموع وجهه ...

« هذا ما اخبرهم ابني عنه · لقد سلم اليهم ابني

« سر الدينونة نفسها ·

« والآن هكذا يبدون لي هكذا اراهم ،

« هكذا انا مرغم ان اراهم ·

« كما ان اثر سفينة جميلة لا يزال يتسع حتى يتلاشى ،

« ولكنه يبدأ برأس ، وهو رأس السفينة ذاته ،

« هكذا موكب الخطاة الهائل لا يزال يتسع حتى يتلاشى ،

« ولكنه يبدأ برأس ، وهذا الرأس يأتي الي ، متجها نحوي ·

« يبدأ برأس هو رأس السفينة ذاته ·

« والسفينة هي ابني نفسه ، حاملا كل خطايا العالم ·

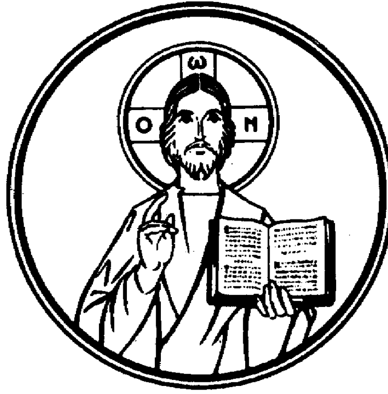
« ورأس السفينة هو يدا ابني المضمومتان ·

« وامام نظرة غضبي وامام نظرة عدالتي

« اختفوا كلهم وراءه ..

« ابانا الذي في السماوات ، لقد اخترع ذلك ·
« لقد كان معهم ، لقد كان مثلهم ، لقد كان واحدا منهم ·
« ابانا · كمثل رجل يلقي معطفا كبيرا على كتفيه ،
« ارتدى ، متجها نحوي ،
« والقى على كتفيه
« معطف خطايا العالم ··· »

Charles Péguy : Le Mystère des Saint Innocents



القيامة

« وقام في اليوم الثالث على ما في الكتب »

القيامة انفجار قوة الفداء المحيية . ويمكننا لجلاء معانيها أن نتأملها من وجهتي النظر التاليتين :

١ – القيامة فيض الحياة الإلهية في إنسانية يسوع المنفتحة إلى الله بعطـــاء كـــامل .

٢ – القيامة تفجير لمملكة الموت بدخول سيد الحياة فيها .

١ – القيامة فيض الحياة الإلهيّة في إنسانيّة يسوع المتفتّحة الى الله بعطاء كامل :

إن الرب يسوع بالصليب بلغ قمة التخلي عن إرادته الذاتيـــة وقدم ذاته بكليته إلى الله الآب ، تقدمة محبة كاملة وعطاء لا تحفظ فيه . هكذا أصبحت إنسانية يسوع منفتحة كل الإنفتاح إلى الله الآب في شركة حب كاملة معه ، ولذا تدفقت فيها الحياة الإلهية كلهـــا وتحولت بالمجد الإلهي . لقد كان مجد الألوهة بالطبع حالاً في المسيح منذ تجسده ، إذ لم يزل إلهاً بعد أن اتخذ جسدنا ، إلا أن هذا المجد كان مستتراً ، محجوباً وراء الطبيعة البشرية التي اتخذها ابن الله بحدودها وشقائها . لذا جاع المسيح وعطش وبكى وتألم . لقد كانت الألوهة مستقرة في قلب كيانه ولكنه كان يبدو في الظاهر إنساناً كبقية الناس . ولكن عندما اكتمل عطاء يسوع بالصليب اجتاح المجد الإلهي الكامن فيه والمحتجب وراء طبيعته الإنسانية هذا الناسوت كله وملأه بقوة الله وحياته وجماله .

عنـــد الفجر تكون الشمس أولا متخفية وراء الأفق ، يتراءى نورها خفيفاً ، ناعماً ، لا يبهر الأنظار ، ثم ينفجر النهار ويغمر النور الكون كله ويضفي على الأشياء كلها بهاء ساطعاً . هكذا ألوهة الرب

يسوع المستمدة أزلياً من الله الآب فاضت بالصليب في ناسوته المنفتح كلياً إلى الآب ، فتمجد هذا الناسوت وانتصر على الموت .

لقد كانت حادثة التجلي (أنظر مثلا متى ١٧ : ١ – ٩ ولوقا ٩ : ٢٨ – ٣٦) مقدمة وصورة للقيامة كما يتضح من توصية يسوع بعد الحادثة (انظر متى ١٧ : ٩) . فعلى جبل التجلي فاض نور الألوهة المستقر في يسوع في جسده فتغير منظره وصاروجهه مُضيئاً كالشمس وثيابه بيضاء كالثلج ، لامعة كالنور . وقد حدث هذا التحوّل عندما كان موسى وإيليا اللذان ظهرا يتحدثان مع يسوع « عن خروجه (أي عن موته) الذي كان مزمعاً أن يتممه في أورشليم » (لوقا٩ : ٣١). لقد تجلّى يسوع عندما كان يتحدث عن موته ، وفي ذلك إشارة إلى أن إنسانية يسوع كانت سوف تتمجد بالموت .

تلك العلاقة الوثيقة بين الصليب وتمجيد يسوع ، قد أوضحها الكتاب المقدس في مواضع مختلفة . ففي إنجيل يوحنا نرى يسوع يقول لتلاميذه قبل آلامه بفترة وجيزة : « لقد حانت الساعة التي **يُمجّد** فيها ابن البشر » (يوحنا ١٢ : ٢٣) وأضاف موضحاً كيف يتمّ هذا التمجيد : « الحق الحق أقول لكم : إن حبة الحنطة التي تقع في الأرض ، إن لم تمت فإنها تبقى وحدها ، وأما **إن ماتت** فإنها تأتي بثمر كثير » (يوحنا ١٢ : ٢٤) . تمجيد يسوع هو إذاً في موته . كذلك في الصلاة التي تفوه بها يسوع قبل خروجه مع تلاميذه إلى بستان الجسمانية حيث أُسلم ، قال : «يا أبتاه ، لقد أتت الساعة! **فمجّد ابنك** ... » (يوحنا ١٧ : ١) « الساعة » التي أتت هي ساعة الصليب والموت كما يتضح من مكان آخر : « فطلبوا عندئذ أن يقبضوا عليه ، إلا أن أحداً لم يُلق عليه يداً . لأن **ساعته** لم تكن بعد قد حانت » (يوحنا ٧ : ٣٠) . «أتت الساعة، فمجّد ابنك » يعني إذاً أن ساعة الموت كانت بالنسبة ليسوع ساعة المجد .

الصليب إذاً كان يحمل كلّ طاقة القيامة : لقد دخل يسوع في المجد عندما قبل باجتياز الموت ولم يبق بعد ذلك إلا أن يظهر هذا المجد بنهوضه من بين الأموات . بالصليب إذاً تحققت القيامة ، لذلك فقد كانت آلة العار هذه بالنسبة ليسوع عرش المجد والظفر . لذا شبهها الرسول بولس بتلك المركبة التي كان يقف عليها قادة روما الظافرون ويدخلون بها إلى المدينة جارّين وراءهم رؤساء الأعداء مقيّدين ، هكذا اعتلى المسيح الصليب كمركبة ظفر وربط بها الأرواح الشريرة مقيّدة ذليلة . « ومحا الصكّ الذي كان علينا ، الذي كان ضدنا بأحكامه ، وأزاله مسمراً إياه على الصليب وجرّد الرئاسات والسلاطين (أي الشياطين) وشهّرهم بابهة ظافراً عليهم فيه (أي بالصليب) » (كولوسي ٢ : ١٤ و ١٥). لذا نرى الفن البيزنطي يرسم أحياناً المسيح المصلوب متوجاً . وللسبب عينه كان المسيحيون قديماً في آسيا الصغرى ، تبعاً لتقليد أخذوه عن يوحنا الحبيب ، يعيّدون للقيامة يوم الجمعة العظيمة . وفي أيامنا هذه ، عندما تحتفل الكنيسة الأرثوذكسية بحزن وخشوع في سحر الجمعة العظيمة بذكرى الصلب منشدة ذاك النشيد المؤثر : « اليوم عُلّق على خشبة الذي علّق الأرض على المياه ... » ، تهتف في آخره : « نسجد لآلامك أيها المسيح ، فأرنا قيامتك المجيدة » ، مظهرة هكذا أنه حينما بلغت الظلمة أشدها بموت المسيح ، انفجر النور في صميمها ولم يبق لنا إلا انتظار ظهوره في صباح الفصح . كذلك في خدمة « جناز المسيح » التي يحتفل بها بتذكار دفن السيد ، تنشد مع المراثي ترانيم للقيامة.

٢ – القيامة تفجير لمملكة الموت بدخول سيّد الحياة فيها

ومن جهة أخرى فقد رأينا أن الرب يسوع دخل في مملكة الموت (وبعبارة أخرى في الجحيم) لكي يشارك الإنسان بؤسه وشقاءه . ولكن الموت لم يكن بإمكانه أن يضبط من هو بلاهوته سيد الحياة ومصدرها . لذلك فقد كان دخول المسيح في الموت حكماً مبرماً على

الموت بالزوال . والموت نتيجة الخطيئة ، ثمرتها السامة ، لذا تحطيم مملكة الموت يعني أيضاً تقويض سلطة الخطيئة . لقد دخل يسوع بموته في السجن الذي كنا فيه مقيدين ، مستعبدين ، نئن تحت نير الشر والبؤس والموت ، فدك هذا السجن الرهيب وحطّمه من أساسه . فأطلق الموت يسوع وأطلق معه البشرية جمعاء التي وحّد يسوع ذاته بها . لذا تنشد الكنيسة معبرة عن هذا الخلاص بصور شعرية : « أيها الرب ، إن أبواب الموت قد انفتحت لك من الخوف ، ولما أبصرك بوابو الجحيم ارتعدوا ، لأنك حطمت أبوابه النحاسية وسحقت أقفاله الحديدية وأنقذتنا من ظلمة الموت وادلهمامه وقطّعت قيودنا » . وأيضاً : «جمع الملائكة انذهل متحيراً لمشاهدتهم إياك محسوباً بين الأموات أيها المخلص وساحقاً قدرة الموت ومنهضاً آدم معك ومعتقاً إيانا من الجحيم كافة » .

هكذا تحققت بقيامة المسيح النبوة التي كان قد تفوه بها هوشع النبي : « سأفتديهم من يد الجحيم وأنجيهم من الموت وأكون هلاكك أيها الموت وأكون استئصالك أيها الجحيم » (هوشع ١٣ : ١٤) . تلك النبوة ردّد الرسول بولس صداها بعدما تحققت بالمسيح منشداً بنشوة الظفر الذي جعلنا يسوع مساهمين فيه : « لقد ابتُلع الموت في الغلبة . أين شوكتك يا موت ، أين غلبتك يا جحيم » (١ كور ١٥ : ٥٤ و ٥٥) وأضاف : « إن شوكة الموت هي الخطيئة ... ولكن الشكر لله الذي يؤتينا الغلبة بربنا يسوع المسيح » (١ كور ١٥ : ٥٦ و ٥٧) ، معلناً أن انتصار المسيح على الموت هو في الآن نفسه إبادة للخطيئة فينا ، تلك الخطيئة التي تنتج الموت .

هكذا صار يسوع الناهض من بين الأموات محرر الإنسانية الحقيقي الأوحد لأنه لم يكتفِ بمعالجة بعض مظاهر مأساة الإنسان لكنه جابه هذه المأساة في أعماقها وأصولها وجعل فينا طاقة تجاوزها .

إنه جابه قوى الموت الكامنة في الإنسان (أي قوى التفكك التي مزقت لإنسان نفساً وجسماً) ومن ورائها تلك القوة الرهيبة التي استخدمتها لاستعباد الإنسان اعني بها قوة الشيطان. لقد جابه يسوع الشيطان في عقر داره إذا صح التعبير ، وضع نفسه بين براثنه ليحطمه ويخلص منه البشر ، دخل إلى مملكته المظلمة ليقيِّده ويبطل قوته . وقد علّمنا الرب يسوع نفسه هذه الحقيقة بِمثَل عندما قال: « إذا كان القوي المتسلح يحرس داره كانت أمتعته في أمان . ولكن إذا جاء من هو أقوى منه وغلبه ، فإنه يجرّده من جميع سلاحه الذي كان يعتزّ به ، ويقسّم غنائمه » (لوقا ١١ : ٢١ و ٢٢) .

هكذا انتصر المسيح على الموت لما اجتاز ظلمته ، لقد « وطىء الموت بالموت » كما تنشد الكنيسة . لقد فتح باب النور والحياة بيديه الداميتين . ولكنه أحرز هذا الظفر من أجلنا نحن ، ليجعلنا مساهمين فيه . نحن ظافرون إذاً على قدر اتحادنا بالمسيح الظافر . نعم ، إننا لا نزال نخطىء ونتألم ونموت ، ولكن طاقة الحياة الظافرة قد زُرعت في أعماقنا . من يمر على حقل بعد أن زُرعت فيه البزور يخاله جامداً ، ميتاً ولكن الحياة كامنة في أعماقه تتحفز للوثوب وسوف تنتصب بعد فترة تحت السماء سنابلَ ذهبية تتماوج في النور . عندما كان يسوع موضوعاً في القبر ، كان يبدو ميتاً كبقية الأموات ولكن الحياة كلها كانت كامنة في هذا الجسد الساكن، كقنبلة مؤقتة كان لا بد لها أن تفجّر الموت وتدحرج حجر الضريح . هكذا فالمتحدون بيسوع يحملون في أجسادهم المائتة ونفوسهم التي لم تتحرر بعد كلياً من ضعفها طاقة قيامة ربهم التي سوف تحولهم في اليوم الأخير على صورة السيد الناهض من بين الأموات « لأن لا بدّ لهذا الفاسد أن يلبس عدم الفساد ولهذا المائت أن يلبس عدم الموت» (اكورنثوس١٥ : ٥٣). وقد كتب الرسول يوحنا بهذا المعنى مظهراً كيف أننا في آن حاصلون على

التجدد ومنتظرون إعلانه الكامل فينا : « أيها الأحباء ، نحن من الآن أولاد الله ، ولم يتبين بعد ماذا سنكون . غير أننا نعلم أننا ، إذا ما ظهر (أي المسيح) ، سنكون أمثاله ... » (يوحنا ٣ : ٢) .

بالقيامة تحقق الخلاص الذي شاء الرب أن يتممه بتجسده وصليبه. القيامة إذاً علامة نجاح خطة الله الحبية لإنقاذ الإنسان . إنها برهان خلاصنا . ولذلك فهي الركيزة الأساسية للبشارة المسيحية. فقد كان الرسل قبل كل شيء شهوداً لقيامة المسيح (انظر أعمال الرسل (١ : ٢١ و ٢٢) وكتب الرسول بولس إلى أهل كورنثوس : « (لو) كان المسيح لم يقم ، فكرازتنا إذاً باطلة ، وإيمانكم أيضاً باطل (١ كورنثوس ١٥ : ١٤) . القيامة قلب الإيمان المسيحي والحياة الروحية . إنها أيضاً محور الترتيب الطقسي ، فكل يوم أحد هو تذكار للقيامة ، وكل قداس إلهي هو استمرار لها ، والصوم الكبير استعداد للفصح ، والفصح « عيد الأعياد وموسم المواسم » كما تسميه الطقوس و « قلب الأرثوذكسية » كما دعاه اللاهوتي الأرثوذكسي المعاصر الأب بولغاكوف ، فيه تنشد الكنيسة متهللة بفرح يفوق الأرض : « اليوم يوم القيامة ، فسبيلنا أن نتهلل أيها الشعوب ، لأن الفصح هو فصح الرب ، وذلك لأن المسيح إلهنا قد أجازنا (كلمة فصح معناها : اجتياز ، عبور) من الموت إلى الحياة ومن الأرض إلى السماء ، نحن المنشدين له نشيد النصر والظفر » (قانون سحر الفصح) .

اسئلة

١ – اذا كان الموت قد نتج عن انغلاق الانسان على ذاته دون الله ، فكيف كانت قيامة المسيح مرتبطة بانفتاحه الكلي بالصليب الى الآب ؟

٢ – الم تكن حادثة التجلي (اقرأها في متى ١٧ : ١ – ٩ ولوقا ٩ : ٢٨ – ٣٦) مقدمة وصورة للقيامة ؟ (انظر متى ١٧ : ٩) . كيف ذلك ؟ الا يظهر ارتباط بين هذه الحادثة وموت المسيح ؟ (انظر لوقا ٩ : ٣١) الى مايشير هذا الا رتباط ؟

٣ – تمجيد يسوع وان أعلن بعد الصليب بنهوض السيد من بين الأموات ، إلا انه تم بالصليب الذي صار بالنسبة ليسوع مرادفاً للمجد. كيف يظهر هذا الترادف في الانجيل (انظر يوحنا ١٢ : ٢٣ و ٢٤ ، يوحنا ١٧ : ١) وفي طقوس اسبوع الآلام (تأمل مثلا في ترنيمة : «اليوم علق على خشبة ...» وفي خدمة « جناز المسيح»)؟

٤ – اذا كان رب الحياة قد دخل طوعاً بموته الى مملكة الموت ، فهل كان بامكان تلك المملكة ان تضبطه ؟ (انظر هوشع ١٣ : ٤ و١ كورنثوس ١٥ :٥٤و٥٥) ماذا نتج اذاً عن دخوله فيها بالنسبة له ولنا ؟

٥ – تحطيم الموت الا يعني ايضاً تحطيم قوى الخطيئة التي هي اصل الموت ؟ (انظر ا كورنثس ١٥ : ٥٦ و ٥٧)

٦ – الايعني ايضاً القضاء على قدرة الشيطان الذي كان يستعبدنا بالخطيئة والموت؟ (انظر لوقا ١١ : ٢١ و ٢٢)

٧ – هل ظفر يسوع من اجل نفسه ام من اجلنا ؟ كيف التوفيق بين كوننا مساهمين في ظفره وكوننا لا نزال نشقى ونخطىء ونموت ؟ (تأمل في وضع المسيح عندما كان طريح القبر وفكر ، على سبيل الصورة ، بحقل طمرت فيه البزور)

٨ – ماهي اهمية القيامة بالنسبة للايمان المسيحي ؟ (انظر اعمال الرسل ١ : ٢١و٢٢ واكورنثوس ١٥ : ١٤) . ما هي اهميتها في الترتيب الطقسي ؟

ملحـــق

عظة للقديس يوحنا الذهبي الفم بمناسبة احد الفصح المجيد

« من كان حسن العبادة ومحبا لله فليتمتع بحسن هذا الموسم البهيج • من كان عبدا شكورا فليدخل الى فرح ربه مسرورا من تعب صائما فليأخذ الان اجرته دينارا • من عمل من الساعة الاولى فلينل اليوم حقه بعدل • من قدم بعد الساعة الثالثة

فليعيد شاكرا • من وافى بعد الساعة السادسة فلا يشك فانه لا يخسر شيئا • من تأخر الى الساعة التاسعة فليتقدم غير مرتاب • من وصل الساعة الحادية عشرة فلا يخف الابطاء فان السيد كريم جواد ، يقبل الاخير مثل الاول ، ويريح العامل من الساعة الحادية عشرة مثل العامل من الساعة الاولى • يرحم الاخير ويرضي الاول • يعطي ذاك ويهب هذا • يقبل الاعمال ويسر بالنية • يكرم الفعل ويمدح العزم • فادخلوا اذا كلكم الى فرح ربكم • أيها الاولون والاخيرون خذوا أجوركم • أيها الاغنياء والفقراء اطربوا معا فرحين • امسكتم او توانيتم أكرموا هذا النهار • صمتم او لم تصوموا افرحوا اليوم ، المائدة ملآنة فتمتعوا كلكم ، العجل سمين واف فلا يخرجن احد جائعا • تمتعوا كلكم بوليمة الايمان • تمتعوا كلكم بوليمة الصلاح • لا ينوحن احد عن فقر فان الملكة العامة قد ظهرت • لا يندبن احد على اثم فان الصفح قد بزغ من القبر • لا يخف احد الموت فان موت المخلص قد حررنا • فانه قد اخمد الموت حين قبض الموت عليه ، وسبى الجحيم بنزوله اليه ، مرمره لما ذاق جسده • هذا ما سبق اشعياء ونادى به قائلا : تمرمر لما التقاك اسفل • تمرمر لانه بطل • تمرمر لانه هزىء به • تمرمر لانه قد اميت • تمرمر لانه قد ابيد • تمرمر لأنه قد ربط • تناول جسدا فصادف آلها • تناول ارضا فالفاها سماء • تناول ما نظر فسقط من حيث لم ينظر • أين شوكتك يا موت؟ أين غلبتك يا جحيم؟ قام المسيح وانت صرعت • قام المسيح والجن تساقطت • قام المسيح والملائكة جذلوا • قام المسيح والحياة انبعثت • قام المسيح ولا احد ميت في القبر • قام المسيح من الاموات فصار باكورة الراقدين فله المجد والعزة الى دهر الداهرين • آمين •

اشتراكنا في صليب الرب وقيامته

١ – إن ما فعله الرب باجتيازه الموت الذي قاده إلى القيامة ، إنما فعله من أجلنا . ذلك أن الإنسان كان عليه ، كي يخلص من شقائه وتفككه ، أن يقبل بالتخلي عن تعبده للأنا ، فيلاقي الله من جديد وينعم بحياته . ولكن الإنسان الساقط لم يعد قادراً على هذا التخلي لأن في ممارسته شعوراً بالانسلاخ والفراغ وضياع الذات. بعبارة أخرى ، إذا شاء الإنسان أن يعرض عن اتخاذ الأنا محوراً لكل شيء ، شعر وكأنه يموت ، كأن حياته تفلت منه . لذا يتمسك الإنسان بأنانيته مخافة من الموت . ولكنه بذلك يبقى بعيداً عن الله ، ينبوع الحياة ، وبالتالي يبقى أسير الموت (بمعناه العام ، أي بمعنى التفكك الكياني الذي ليس الموت الجسدي سوى مظهر من مظاهره) . **إذاً الإنسان يبقى أسير الموت بداعي خوفه من الموت**. تلك هي المفارقة الكبرى التي هي في صميم مأساة الإنسان والتي يمكن لكل واحد منا أن يختبرها

فلنتساءل : لماذا نخطىء ، فنجعل حاجزاً بين الله وبيننا ؟ الجواب العميق على هذا السؤال هو أننا نخطىء مخافة من الموت . لماذا يسرق الإنسان ؟ لأنه مثلاً يخاف من الحرمان ، والحرمان نوع من الموت . لماذا يكذب ؟ لأنه مثلاً يخاف من العقاب ، والعقاب نوع من الموت . لماذا يزني ؟ لأنه في كثير من الأحيان يخاف من العزلة ، والعزلة نوع من الموت . لماذا يتباهى ؟ لأنه يخاف أن لا يُعجب به الناس ، أن يهملوه ، وإهمال الناس له نوع من الموت . مجمل الكلام أننا نستعبد أنفسنا للخطيئة ، وبالتالي للموت ، الذي هو على حد تعبير الرسول بولس « أجرة الخطيئة » (روميه ٦ : ٢٣) (لأن الخطيئة تفصل عن الله مصدر الحياة) بسبب خوفنا من الموت . هذا ما عبّر عنه الكتاب المقدس في الرسالة إلى العبرانيين بقوله إن البشر « كانوا

طيلة حياتهم خاضعين للعبودية خوفاً من الموت» (عبرانيين ٢ : ١٥).

ولنا نموذج لذلك في علاقاتنا البشرية . كل إنسان يحلم بأن يعيش صداقة كاملة أو حباً كاملاً ، لأن قلبه يتوق إلى شركة إنسانية كهذه يروي بها عطشه إلى حياة كاملة . ولكن الصداقة الكاملة والحب الكامل أمران يسعى إليهما الإنسان دون أن يتمكن من إدراكهما كلياً . إنه في أحسن الاحتمالات يقترب من تحقيقهما ولكنه ، حتى في هذه الحال ، يبقى على شيء كثير من العطش والعزلة ، إن اتحاده بمن يحب لا يمكن أن يكون كاملاً . لماذا ؟ لأن اتحاد الإنسان بمن يحبه لا يتم إلا إذا قبل الإنسان بأن لا يكون أناه محوراً لوجوده ، بأن يتخلى عن تملك ذاته ، وبعبارة أخرى إذا قبل الإنسان بأن يمر بخبرة الموت . ولكن الإنسان في وضعه الساقط ، وان قبل جزئياً بتلك الخبرة ، لا يستطيع أن يقبلها كلياً وفي الصميم . إنه يخاف الموت ولذا يبقى أسير العزلة وبالتالي أسير الموت .

٢ – يسوع المسيح وحده تمم بناسوته ما لم يكن بوسع أي إنسان أن يتممه . **الإنسان يسوع المسيح استطاع وحده أن يتخلى بالحقيقة عن تملّك ذاته ، وبعبارة أخرى استطاع وحده أن يقبل الموت بالكاية وفي الصميم . ولذا استطاع وحده أن يلج بإنسانيته إلى مجد الله.** لقد كان رئيس الكهنة عند اليهود يدخل مرة في السنة إلى قدس الأقداس (الذي كان يمثل السماء) حاملاً دم الذبائح . الرسالة إلى العبرانيين تقول لنا إن ذلك كان رمزاً للمسيح الذي كان في الآن نفسه الكاهن والذبيحة ، وقد دخل بدمه المسفوك إلى مجد الله : « أما المسيح ، فإذ قد جاء حبراً للخيرات الآتية ، اجتاز المسكن الأعظم والأكمل ، الذي لم تصنعه يد ، أي ليس هو من هذا العالم . وبدمه الخاص ، لا بدم تيوس وعجول ، دخل الأقداس مرة واحدة فوجد فداءً أبدياً » (عبرانيين ٩ : ١١ و ١٢) . هذا الدخول إلى مجد الله إنما ظهر بالقيـــامـــة .

٣ – ولكن يسوع المسيح قد أتمّ هذا العطاء الكامل لا من أجل نفسه بل بالنيابة عن البشر أجمعين . عندما قبل الموت كلياً إنما قبله كممثل عن البشر الذين لا يستطيعون هم قبوله . هذا ما عبّر عنه الرسول بولس بقوله : « إذا كان قد مات واحد عن الجميع فالجميع إذاً ماتوا » (٢ كورنثوس ٥ : ١٤) . **عطاؤنا ناقص لا يمكن أن نبلغ به إلى الله ،** إنه مشوب بالأنانية المستحكمة فينا بسبب خوفنا من الموت ، **ولكننا نستطيع أن نلج إلى الله من خلال عطاء يسوع المسيح الكامل .** يسوع ، بما أنه قربان كامل لله ، يشفع بضعفنا وعجزنا ويقربنا من الله ، كأننا طيور مكسورة الأجنحة يحملها نسر قوي ويحلق بها إلى أقصى الفضاء : « هو قادر أن يخلص على الدوام الذين يتقربون به إلى الله إذ هو حيّ كل حين ليشفع فيهم » (عبرانيين ٧ : ٢٥) . بذبيحة الرب يسوع إذاً ، تلك الذبيحة التي تبلغ وحدها السماوات ، ننال القيامة التي هي تدفق الحياة الإلهية في كياننا المتفكك ، المائت .

٤ – ولكن الفداء لا يفعل فينا بشكل سحري. الله لا يخلص الإنسان بالاستقلال عن إرادة الإنسان لأنه يحترم حريته. **لذا لا ينال القيامة من يرفض الاشتراك في صليب المسيح ، أي من لا يقبل أن يدخل في طريق الموت عن الذات التي سلكها يسوع حتى النهاية .** لقد علمنا الرب صراحة أنه لا يسعنا الاشتراك معه في الحياة الإلهية (أي في قيامته) إن لم نسلك في أثره طريق الموت : « من أراد أن يتبعني ، فليكفر بنفسه ، وليحمل صليبه ، ويتبعني . من أراد أن يخلص نفسه أضاعها ، ومن أضاع نفسه من أجلي وجدها » (متّى ١٦ : ٢٤ و ٢٥) . وقد علمنا الرسول بولس أن اشتراكنا في الصليب ضروري إذا شئنا أن نكون منتمين الى المسيح وبالتالي أبناء القيامة : « الذين هم للمسيح يسوع صلبوا الجسد (أي الخطيئة ، أي عبادة الذات) مع الأهواء والشهوات » (غلاطية ٥ : ٢٤) . « إن كنا قد متنا مع المسيح ، نؤمن أننا سنحيا

أيضاً معه»(رومية٦ : ٨)«نحمل في الجسد (أي: في شخصنا)، كل حين، موت يسوع، لتظهر حياة يسوع أيضاً في جسدنا» (٢ كورنثوس ٤ : ١٠)، «فمنيتي إذاً أن أعرفه هو وأعرف قدرة قيامته، والشركة في آلامه، فأصير على صورته في الموت، على أمل البلوغ إلى القيامة من بين الأموات» (فيليبي ٣ : ١٠ و ١١).

٥ – إننا في وضعنا الساقط لا نستطيع بالطبع أن نقدّم ذواتنا بالكلية **ولكن المطلوب منّا أن نجتهد في هذا السبيل، أن ننوي بصدق السير في طريق نكران الذات وراء المعلم. تلك هي التوبة في الأساس.** إنها سير في طريق إسلام الذات لله. وهذا السير يدوم الحياة كلها لأن عطاءنا يبقى ناقصاً ما حيينا. لذا فالكنيسة ليست كنيسة الصديقين بل كنيسة التائبين أي العائدين من عبادة ذواتهم إلى عبادة ربهم. ولنا في هذا السير دافعان يشددان عزمنا:

أ – **محبة المسيح لنا**: لقد تجلت محبة المسيح لنا بشكل باهر في بذله ذاته من أجلنا. وقد قال هو عن نفسه: «ليس حب أعظم من هذا أن يضع الإنسان نفسه عن أحبائه» (يوحنا ١٥ : ١٣) وأيضاً: «أنا هو الراعي الصالح وأبذل نفسي عن الخراف» (يوحنا ١٠ : ١٤ و ١٥). هذا الحب المبذول يثير حبنا ويدفعنا إلى أن نحيا فيما بعد لا لذواتنا بل للذي مات عنا حباً. بهذا المعنى كتب الرسول بولس: «إن محبة المسيح تحثنا ... إنما مات المسيح لأجل الجميع لكي لا يحيا الأحياء لأنفسهم فيما بعد بل للذي مات وقام من أجلهم» (٢ كورنثوس ٥ : ١٤ و ١٥). وفي مكان آخر كتب: «وما أحياه الآن في الجسد، إنما أحياه في إيمان ابن الله الذي أحبني وأسلم ذاته عني» (غلاطيه ٢ : ٢٠). أي أنني أُسلم ذاتي (هذا هو المعنى العميق للإيمان) لذاك الذي أسلم ذاته لأجلي. هكذا فالحب الذي تثيره فينا محبة المسيح المبذولة لنا حتى الموت يساعدنا على التغلب على

الخوف من الموت ، ذلك الخوف الذي يحول دون تقدمة ذواتنا . هذا ما تنشده الكنيسة عن الشهداء : « لأن المحبة قد غلبت الطبيعة (أي مخافة الموت المتأصلة في طبيعتنا) وجعلت العاشق أن يتحد بواسطة الموت بالمعشوق » (خدمة عيد القديس جاورجيوس) .

ب – **تقتنا بانتصار المسيح على الموت** : ومن جهة أخرى فإن حدّة الخوف من الموت تخفّ فينا لمعرفتنا أن المسيح قهره بمروره فيه. فيما كان يتحدث عن قيامة السيد ، هتف الرسول بولس بلهجة الانتصار : « اين شوكتك يا موت ؟ » (١ كورنثوس ١٥ : ٥٥) . ونحن إذا شئنا التخلي عن أنانيتنا ومررنا من جراء ذلك في خبرة الموت يهدأ جزعنا لعلمنا أننا لسنا نجتاز هذه الخبرة وحدنا ، بل بمعية ذاك الذي اجتاز الموت قبلنا وقهره : « إني ولو سلكت في وادي ظلال الموت لا أخاف سوءًا لأنك معي » (مزمور ٢٢ : ٤) .

٦ – **إنّنا نتمرّس إذاً على تقدمة ذواتنا مدفوعين بالحبّ الذي تثيره فينا محبة الله وبثقتنا بانتصاره على الموت . ولكن الرب أيضاً يعين ضعفنا.** ذلك اننا اذا قبلنا ان نشترك في صليبه، فان تقدمتنا هذه، وان كانت لا تزال ناقصة ، مشوبة بالأنانية ، تبلغ الى الله محمولة على اجنحة تقدمته هو ، كما رأينا . وبعبارة أخرى فان قبولنا الاشتراك في صليب المسيح يجعلنا مشتركين في قيامته ايضاً ، اي في الحياة الالهية التي اجتاحت انسانيته المقربة الى الله . واذا تدفقت الحياة الالهية فينا ، اصبحنا أكثر قدرة على المحبة والعطاء . تلك هي النعمة الالهية التي تجددنا باستمرار بفعل صليب الرب وقيامته .

٧ – **هذا ما يجري خاصة عند اقتبالنا الأسرار الإلهيّة .** فعند اقامة سر الشكر مثلا ، في القداس الالهي ، يأتي المؤمنون الى الله بتوبتهم (أي بعزمهم على إسلام ذواتهم لله) ولكن هذه التقدمةلا تبلغ الى الله الا لكونها تندمج في التقدمة الكاملة الوحيدة، تقدمة

المسيح المصلوب التي يشكل كل قداس امتداداً لها . استحالة الخبز والخمر (اللذين يمثلان تقدمة البشر) الى جسد ودم المسيح معناها ان المسيح اتخذ توبة البشر الناقصة ودمجها بتقدمته هو ليوصلها الى الآب . هكذا يبلغ المؤمنون بالمسيح الى الله وينالون بتناول القرابين الحياة الالهية فيصيرون مشاركي القيامة التي تجددهم وتؤهلهم أن يكونوا بدورهم قرابين .

٨ – هكذا بالتوبة التي هي عمليّة تستمر العمر كلّه – لأن طاعتنا لله ناقصة ما حيينا – وبالأسرار ، نشترك أكثر فأكثر بصليب المسيح وقيامته . بالتوبة والاسرار يتصور المسيح أكثر فأكثر فينا على حد تعبير الرسول ، اي نصبح أكثر فأكثر مساهمين في انفتاحه التام للآب وفي تدفق الحياة الالهية فيه . وهكذا شيئاً فشيئاً نصبح على حد تعبير الرسول « امواتاً للخطيئة » (روميه ٦ : ١١) وشيئاً فشيئاً نستطيع ان نتبنى قول الرسول : « اني قد صُلبت مع المسيح ؛ فلست أنا حياً بعد بل المسيح يحيا فيّ » (غلاطية ٢ : ١٩ و ٢٠).

اسئلة

١ – هل بامكان الانسان ، لو ترك لنفسه ، ان يتخلى عن عبادة الأنا ليعيد الاتصال بالله ويستعيد الحياة الالهية ؟ ما الذي يحول بينه وبين هذا التخلي ؟

٢ – اليست اذاً التقدمة الوحيدة الكاملة التي تبلغ وحدها الى الله هي تقدمة المسيح ؟ (انظر عبرانيين ١٠ : ٥ – ٧ و ٩ : ١١ و ١٢)

٣ – ولكن هل تمم المسيح العطاء من اجله هو ام بالنيابة عن البشر اجمعين ؟ (انظر ٢ كورنثوس ٥ : ١٤)

٤ – الا يعني ذلك ان تقدمتنا الناقصة تبلغ الى الله محمولة على جناحي تقدمة المسيح الكاملة ؟ (انظر عبرانيين ٧ : ٢٥)

٥ – ولكن هل يمكننا ان نستفيد من الفداء ان لم نكن مزمعين على الاشتراك في تقدمة المسيح ؟ (انظر متى ١٦ : ٢٤ و ٢٥ ؛ غلاطية ٥ : ٢٤ ؛ ٢ كورنثوس ٤ : ١٠ و ١١ وروميه ٦ : ٨)

٦ – اليست التوبة (وهي تعني في العربية : عودة) اذاً في الأساس هذا التسر

في طريق إسلام الذات لله مع المسيح ؟ هل ينتهي هذا السير طالما نحن على قيد الحياة ؟

٧ – كيف تدفعنا محبة المسيح الذي بذل ذاته لاجلنا (انظر يوحنا ١٥ : ١٣، يوحنا ١٠ : ١٤ و١٥) الى السير في هذه الطريق (انظر ٢ كورنثوس ٥ : ١٤ و١٥ وغلاطيه ٢ : ٢٠)

٨ – في طريق نكران الذات ، الذي فيه شيء من خبرة الموت ، الا تشدد ثقتنا بانتصار المسيح على الموت عزائمنا ؟ (انظر مزمور ٢٢ : ٤ واكورنثوس ١٥ : ٥٥)

٩ – اذا كانت التوبة تفتح لنا باب القيامة لانها تشركنا بصليب المسيح ، اليس صحيحاً من جهة أخرى ان قوة القيامة اذا تسربت الينا تجعل توبتنا اكمل ؟

١٠ – اليست الأسرار – التي لا تفعل فينا الا بالتوبة – اشتراكاً في صليب المسيح وقيامته ؟ كيف يتم ذلك في المعمودية ؟ (انظر روميه ٦ : ٣ – ١١) كيف يتم ذلك في سر الشكر ؟



الفداء ومحبة القريب

١ — إن محبّة الفادي لنا تلهم محبتنا للناس : محبة الفادي التي تجلت في بذله ذاته عنا هي بمثابة النار التي لابد لها ان تلهب ما حولها. انها حريّة بأن تضرم فينا بدورنا نار المحبة. لقد قال الرب بهذا المعنى : « لقد جئت لالقي على الأرض ناراً ، وكم أود لو تكون قد اضطرمت » (لوقا ١٢ : ٤٩) . الحب يستدعي الحب. لقد بين علم النفس الحديث ان الطفل يستمد من محبة والديه له المقدرة على أن يحب بدوره الناس ، وبعبارة اخرى ان حب والديه له يوقظه الى الحب ، يفجّر فيه طاقة الحب. هكذا المحبة الفائقة التي ابداها الرب نحونا تنتزعنا من اكتفائيتنا لتلقي بنا بدورنا في مجازفة الحب. هذا الجواب الحي على محبة السيد يتخذ ، كما رأينا ، شكل الحب لشخصه ، ولكنه يتخذ ايضاً شكل محبة البشر. ذلك لانه لايسعنا ، اذا كنا مؤمنين ، الا أن نرى في كل انسان ، اياً كان ، « ذاك الأخ الذي لأجله مات المسيح » (١ كورنثوس ٨ : ١١). عند ذاك يصبح كل انسان ، في نظرنا ، ذا قيمة لا تقدر ، قيمة الدم الالهي الذي سُكب من اجله .

٢ — إن محبّة الفادي لنا تُعيِّن نوعيّة محبتنا للناس : محبة الفادي لا تلهم محبتنا للناس وحسب ، ولكنها أيضاً تعين نوعيتها. ذلك انه ينبغي لنا ان نحب الناس بالمحبة التي احبهم بها المسيح. تلك هي وصية السيد في خطابه الوداعي : « هذه وصيتي ان تحبوا بعضكم بعضاً كما احببتكم أنا » (يوحنا ١٥ : ١٢). هذا يعني انه ينبغي ان تكون لمحبتنا للناس الصفات التالية :

أ — **مبنية على بذل الذات** : يكثّر الناس من استعمال كلمة « احب » ، ولكن هيهات أن يكون الحب الذي يتحدثون عنه في

كثير من الأحيان هو الحب الأصيل الذي عاشه السيد . « احب التفاح » يعني أنني أتلف التفاح من أجل لذتي . ولكن « حب » الناس للناس كثيراً ما يتخذ شكلا ليس ببعيد كثيراً عن « حب » التفاح . « أحب » انساناً يعني في كثير من الأحيان ، اذا شئت ان اواجه حقيقتي ، انني اريد تسخيره واستغلاله لشهوتي او مصلحتي . اما المسيح فقد احبنا من أجل أنفسنا وعوض ان يسخرنا له سخر نفسه لاجلنا . لقد اعتبر أن لنا من الأهمية ما يبرر سفك دمه الالهي عنا . فاتاح لنا هكذا ان نكتشف المحبة الحقة التي لا تقوم الا على العطاء . ولذا نرى الرسل يحثوننا على اقتفاء آثار السيد في محبتنا للناس . فقد كتب الرسول يوحنا : « بهذا قد عرفنا المحبة : ان ذاك قد بذل نفسه لاجلنا ؛ فيجب علينا ، نحن أيضاً ، ان نبذل **نفوسنا** لاجل الاخوة » (١ يوحنا ٣ : ١٦) . « ان نبذل نفوسنا » : يسوع لم يعط فقط اشياء**ممّا له**، انما أعطى **ذاته** للناس ، طيلة حياته اولاً التي كانت مسخرة اولاً لخدمتهم ثم في تقدمته الكبرى على الصليب . ما يُطلب منا ان لا نكتفي نحن ايضاً باعطاء بعض الوقت او المال للغير ، بل ان يكون الغير شغلنا الشاغل وموضوع اهتمامنا الدائم. المطلوب ان لا نعود نحن مركز اهتمام ذواتنا بل ان يصبح الغير هم مركز الاهتمام ، كما كتب الرسول بولس : « فعلينا نحن الاقوياء ان نحتمل اوهان الضعفاء ولا نرضي انفسنا . فليرض كل واحد منا القريب للخير لاجل البنيان . لان المسيح لم يُرض نفسه بل على ما هو مكتوب : « تعييرات معيريك وقعت عليّ » (رومية ١٥ : ١ — ٣).

ب — **تتجلّى بالمشاركة** : المسيح اذ أحبنا شاركنا حياتنا وآلامنا وموتنا . محبتنا نحن أيضاً يجب أن تتجلى بالمشاركة . قد يكون في الشفقة ترفع عن الغير ، ولذا فقد تجرح الناس وتضيف الى آلامهم ألماً جديداً ومرارة . ولكن المشاركة تضمد الجراح لاننا بها نكون مع

المتألم وليس فوقه . لذلك أوصى الكتاب : « افرحوا مع الفرحين وابكوا مع الباكين » (روميه ١٢ : ١٥) وايضاً « اذكروا الاسرى كأنكم مأسورون معهم » (عبرانيين ١٣ : ٣) . وقد عاش الرسول بولس المحبة الى حد المشاركة الصميمية في المآسي التي كانت تجتازها الكنائس التي اسسها : « من يضعف ولا أضعف أنا من يعثر ولا احترق انا » (٢ كورنثوس ١١ : ٢٩) .

ج – **توجّه الإرادة والعمل** :ولكن هذه المشاركة لا قيمة لها إن لم تتعد صعيد العاطفة . قد نريح ضميرنا بشكل رخيص مكتفين بأن « نشعر » مع الناس . ولكن مشاعرنا لا تهم الله كثيراً . إن مـــا يهمه إرادتنا . المسيح لم يتله بتعابير غنائية عن المحبة وإنما عاشها في عرق وجهاد وفي النهاية بتسليم ذاته للموت . لذا فليس المهم أن « أحسّ » نحو الناس بانعطاف ، إنما المهم أن أوجّه إرادتي بالفعل نحو خدمتهم. هذا ما علمنا اياه الرسول يوحنا بقوله:«يا أولادي لا تكن محبتكم بالكلام ولا باللسان بل بالعمل وحقاً » (يوحنا ٣:١٨) .

د – **مجانية ، غير مشروطة** : لقد كان الله هو البادىء بالمحبة، إذ أن الإله المتجسد بذل نفسه عنا بغض النظر عن عدائنا له ، عن رفضنا إياه . لقد أحبنا مجاناً ، دون قيد أو شرط ، لا لسبب آخر سوى حبه المجاني . هذا ما حدثنا عنه الرسول بولس بقوله : « إن المسيح ، ونحن بعد ضعفاء ، قد مات ، في الأوان المعين ، عن الكافرين . ولا يكاد أحد يموت عن بار ، وقد يُقدم أحد على الموت عن صالح . وأما الله فقد برهن على محبته لنا بأن المسيح قد مات عنا ونحن بعد خطأة » (روميه ٥ : ٦ – ٨) . وبالمعنـــى نفسه كتب الرسول يوحنا : « على هذا تقوم المحبة : لا اننا نحن احببنا الله ، بل هو نفسه احبنا وارسل ابنه كفارة عن خطايانا » (يوحنا ٤ : ١٠) . هكذا يجب ان تكون محبتنا للناس مجانية كمحبة يسوع لنـــا . يجب

ان نحبهم مهما كانت صفاتهم ، مهما كان انسجامهم او عدم انسجامهم معنا ، مهما كانت علاقاتهم بنا وتصرفاتهم نحونا : « ان احببتم من يحبكم فأي فضل لكم ؟ فالخطأة ايضاً يحبون من يحبهم ؛ وان احسنتم الى من يحسن اليكم فأي فضل لكم ؟ فالخطأة ايضاً يفعلون كذلك . وان اقرضتم من ترجون ان تستوفوا منهم ، فأي فضل لكم ؟ فالخطأة ايضاً يقرضون الخطأة ، لكي يستوفوا منهم المثل . ولكن ، احبوا اعداءكم، واحسنوا ، واقرضوا غير مؤمّلين شيئاً ، فيكون اجركم كبيراً ، وتكونوا بني العلي ؛ فانه هو منعم على غير الشاكرين وعلى الاشرار » (لوقا ٦ : ٣٢ – ٣٥) .

المسيحي هو دوماً البادىء بالمحبة كما ان المسيح هو المبادر بالحب نحونا . لقد كنا غرباء عنه ، ضائعين في متاهات عبادة الذات ، ولكنه اتى الينا – ولا يزال يأتي – فجعلنا قريبين اذ غمرنا بحبه المبذول . هكذا علمنا من هو القريب . لقد كان اليهود يعتقدون ان القريب ، الذي تتوجب عليهم محبته ، هو من كان يشاركهم في الجنس والدين . وذات يوم سأل احد معلمي الناموس يسوع قائلا : « من هو قريبي » ؟ فلم يجبه يسوع مباشرة بل روى له مثل ذاك الانسان اليهودي الذي جرّحه اللصوص بين اورشليم واريحا وتركوه بين حي وميت ، فمر به كاهن ولاويّ (اي احد مساعدي الكهنة) يهوديان فاهملاه ولكن سامرياً اعتنى به مع انه كان غريباً عنه بالجنس والدين ، ثم سأل يسوع معلم الناموس : « فأي هؤلاء الثلاثة تحسبه صار قريباً للذي وقع بين اللصوص » ؟ فاجابه : « الذي صنع معه الرحمة » ، فقال له يسوع : « امض انت واصنع هكذا » (انظر لوقا ١٠ : ٢٥ – ٣٧) . هنا فجّر يسوع وصية المحبة التي كانت في العهد القديم اذ اعطاها ابعاداً شاسعة وجعلها تتخطى كل الحدود . علمنا ان القريب ليس من هو قريبي ، اي من تربطني به روابط اللحم والدم ، روابط العاطفة او المصلحة ، روابط الرأي الواحد والمجتمع الواحد ، انما قريبي هو من

اصير انا قريباً منه بمحبتي له . القريب هو مـن اقترب انا منه بالمحبة .
إنني أصبح قريباً لكل إنسان – ويصبح كل إنسان قريبي – إذا أحببته ولو لم يكن بين هذا الإنسان وبيني أي رابط بشري . أكثر من ذلك ، إذا كان إنسان منا عدوي ، فمحبتي غير المشروطة له تجعله قريباً ، كما أن المسيح صار قريباً لي ، وقد كنت عدوه ، إذ بذل نفسه عني .

هـ – موجهة بصورة خاصة إلى المتألمين : تلك المحبة للقريب يجب أن تشمل بنوع خاص البشر المتألمين ، الذين هم بحاجة خاصة إليها . إن كنا نحب المسيح فلنا أن نرى في كل معذبي الأرض وجهه الدامي المكلل بالشوك وجسده الممزق وكرامته المداسة من الناس ونفسه الحزينة حتى الموت . ذلك أن الرب نفسه جعل تلك المطابقة بين المتألمين وبينه ، فأقام وحدة حال بينه وبين الجائعين والعطاش والعراة والغرباء والمرضى والمسجونين : « كنت جائعاً فأطعمتموني وعطشاناً فسقيتموني . كنت غريباً فآويتموني وعرياناً فكسوتموني ومحبوساً فأتيتم إليّ » (متى ٢٥ : ٣٥ و ٣٦) . هذا ما سوف يقوله الرب للأبرار في اليوم الأخير . مضيفاً : « كل ما فعلتموه بأحد اخوتي هؤلاء الصغار فبي فعلتموه » (متى ٢٥ : ٤٠) . والصغار هؤلاء هم البؤساء ، الضعفاء الذين هم بنوع خاص أخوة يسوع إذ لم يشارك الرب البشر أمجادهم وغناهم إنما ارتضى أن يشاركهم بؤسهم وفقرهم . المتألمون امتداد للمسيح المتألم . ولذلك كان أحد الآباء الروحيين يقول : إن شئتم أن تلمسوا اليوم جراح المسيح كما لمسها توما ، فما عليكم إلا أن تحتكوا بإنسان بائس .

لذا فموقفنا مـن البائسين لا يمكن أن يكون بحـال من الأحوال موقف الترفّع والتفضّل ، إنمـا هـو موقف احترام عميق لهؤلاء الذين ، وإن لم يدروا ، وإن جدّفوا ، هم في بشاعة بؤسهم صورة لذاك الذي ارتضى أن يصبح « لا صورة له ولا بهاء

فننظر إليه ولا منظر فنشتهيه ، مزدرى ومخذول من الناس ، رجل أوجاع ومتمرس بالعاهات ... مزدرى فلم نعبأ به ... » (أشعيا ٥٣ : ٢ و ٣) .

يُروى عن القديس يوحنا الذي كان بطريركاً للإسكندرية في أوائل القرن السابع ودُعي يوحنا الرحوم ، إنه عندما استلم مسؤوليته البطريركية طلب من أعوانه أن يضعوا له لائحة باسماء « سادته » . وعندما سألوه مستغربين من عسى يكون هؤلاء السادة ، أجابهم بأنهم فقراء الإسكندرية . هذا هو الموقف المسيحي الأصيل .

ولكن محبة البؤساء والمحرومين لا يمكن أن تتخذ طابع العمل الفردي وحسب ، لأنها عندئذ تكون ناقصة . محبتنا المسيحية للبائسين تدعونا لرفض كل ما يكرس بؤسهم وحرمانهم في الأنظمة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية . تلك المحبة تدعونا للنضال من أجل إقامة مجتمع يؤمّن لمعذبي الأرض العدالة وشروط حياة كريمة . هذا ما فهمه عدد متكاثر من المسيحيين في عصرنا الذين في كل أقطار المعمورة يناضلون من أجل العدالة وكرامة الإنسان ، مدفوعين لا باعتبارات إنسانية وحسب بل بقناعتهم بأن كل ظلم يلحق بالإنسان إنما هو طعنة للمسيح في الصميم : « كل ما فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الصغار فبي فعلتموه ... كل ما لم تفعلوه بأحد أخوتي هؤلاء الصغار فبي لم تفعلوه » . أمام الدماء النازفة من جراح محرومي الدنيا ، لا يسع المسيحيين إلا أن يتذكروا عبارة باسكال الشهيرة : « المسيح في نزاع إلى منتهى الدهر ، فكيف يسعنا أن ننام ؟ » .

٣ — من قيامة المسيح نستمد المقدرة على محبة القريب : ولكن محبة القريب ، كما حددناها ، تلك المحبة غير المشروطة التي تتجه إلى الآخر من أجل ذاته وتبذل ذاتها من أجله ، تلك المحبة لا تنسجم مع متطلبات « الإنسان العتيق » فينا ، ذلك الإنسان الساقط ، أسير الأنا ،

الذي يعتبر ذاته مركزاً للكون ولا ينظر إلى الآخر إلا كوسيلة لإشباع شهوته أو حاجز دون بلوغ مأربه .

المحبة المسيحية تفرض أن نتخلق بأخلاق الله وهذا لا يتمّ لنا إلا باشتراكنا بقيامة المسيح التي بها نصبح مساهمين في حياة الله وبالتالي في أخلاق الله . المحبة المسيحية ثمرة من ثمار القيامة التي نشترك بها كما رأينا بالتوبة وبالأسرار . « الإنسان العتيق » ، وهو في كل منا كامن ما حيينا ، لا قدرة له على المحبة المسيحية لأنه بعيد عن الله ، في تفكك وموت . الحياة الإلهية إذا تدفقت في كياننا تكوّن فينا إنساناً جديداً ، مستعيداً صورة خالقه ، وتجعلنا بالتالي قادرين على محبة القريب . لذا كتب الرسول يوحنا إلى المسيحيين قائلاً لهم أن المحبة التي تجمع بينهم هي برهان خروجهم من الموت إلى الحياة ، أي برهان مساهمتهم في قيامة المسيح : « فنحن نعلم أننا قد انتقلنا من الموت إلى الحياة ، لأننا نحبّ الأخوة » (١ يوحنا ٣ : ١٤) .

وقد كتب الرسول نفسه أيضاً . « إن المحبة من الله ، وكل من يحب فهو مولود من الله ويعرف الله (بالمعنى الكتابي : أي هو متحد بالله) . من لا يحب لم يعرف الله ، لأن الله محبة » (١ يوحنا ٤ : ٧ و٨) لذا تربط الكنيسة بين القيامة ومحبة الناس فتنشد في خدمة الفصح : « اليوم اليوم القيامة ... فلنقل : « يا أخوة » ونصفح لمبغضينا عن كل شيء في القيامة » ، وكأنها تذكرنا بذلك إن اشتراكنا في القيامة ينبوع محبتنا للآخرين .

ولكن إذا كانت محبة الإخوة ثمرة اشتراكنا في القيامة ، فمن جهة أخرى التمرس عليها والجهاد من أجل اكتسابها هو مظهر أساسي لذلك المجهود ، مجهود التوبة ، الذي به ، كما رأينا ، نقبل الاشتراك بصليب الرب فنصبح مشتركين بقيامته . إن جهاد إسلام ذواتنا للرب لا ينفصل عن الجهاد في سبيل محبة القريب : « من ثبت في المحبة ثبت

في الله ، وثبت الله فيه » (١ يوحنا ٤ : ١٦) . مجمل الكلام أن محبة القريب هي ثمرة القيامة وطريق القيامة في آن .

لقد كتب الفيلسوف الملحد سارتر في إحدى مسرحياته الجملة المشهورة : « الجحيم هو الآخرون » . ويُروى أن الفيلسوف المسيحي كبريال مارسيل كان يحضر تمثيل تلك المسرحية ، فعندما اطلقت العبارة المذكورة آنفاً ، سمعه أحد الجالسين إلى جانبه يتمتم « كلا ! السماء هي الآخرون » . إن الاعتراف بالآخر شخصاً مستقلاً عن أهوائنا ومصالحنا ، مهماً بحد ذاته ، وبعبارة أخرى الإعتراف به على أنه آخر وليس مجرد امتداد لشخصي هذا الإعتراف الذي تفترضه المحبة المسيحية « جحيم » بالفعل « للإنسان العتيق » فيّ ، إنسان الشهوة ، أسير عبادة الذات . إنه انسلاخ وموت . ولكن مَن قَبِلَ أن يجتاز هذا الموت يشترك في صليب المسيح ويبلغ إلى الله من خلال انفتاحه للآخر فتتحقق « السماء » في قلبه .

اسئلة

اقرأ لوقا ١٠ : ٢٥ – ٣٧ ومتى ٢٥ : ٣١ – ٤٦

١ – كيف تلهم محبة الفادي لنا محبتنا للناس ؟ (انظر لوقا ١٢ : ٤٩ واكورنثوس ٨ : ١١)

٢ – الم يطلب الرب منا ان تكون نوعية محبتنا للناس كنوعية محبته لنا ؟ (انظر يوحنا ١٥ : ١٢)

٣ – هل كل ما يسميه الناس « حباً » هو حب بالمعنى الاصيل ؟ الا تختفي في كثير من الاحيان وراء هذه العبارة رغبة في تسخير الناس واستغلالهم ؟ اليست المحبة المسيحية مختلفة جذرياً عن «حب» كهذا ؟ (انظر ١ يوحنا ٣ : ١٦ ، روميه ١٥ : ١ – ٣)

٤ – الا تقتضي المحبة المسيحية مشاركة الناس ؟ الا تنفي المشاركة ذلك الترفع الذي كثيراً ما يشوه الشفقة؟ (انظر روميه ١٢ : ١٥ وعبرانيين ١٣ : ٣و ٢ كور ١١ : ٢٩)

٥ – هل يمكن ان تكون المحبة المسيحية مجرد عاطفة؟ (انظر ١ يوحنا ٣ : ١٨ ولوقا ١٠ : ٣٤ و٣٥)

٦ – هل كان بذل المسيح ذاته عنا مشروطاً بموقفنا نحن من الله ؟ (انظر روميه ٥ : ٦ – ٨ و ١ يوحنا ٤ : ١٠) . الا يعني ذلك ان محبتنا للناس يجب ان تكون ايضاً مجانية ؟ (انظر لوقا ٦ : ٣٢ – ٣٥)

٧ – الا ينتج من ذلك مفهوم جديد لمن هو القريب ؟ . كان اليهود يعتقدون ان القريب التي تتوجب عليهم محبته هو ابن جنسهم ودينهم . الم يقلب المسيح هذا المفهوم في روايته لمثل السامري الشفوق (لوقا ١٠ : ٢٥ – ٣٧) ؟ ما هو تحديد القريب حسب هذا المثل ؟(انظر لوقا ١٠ : ٣٦ و ٣٧) . الا يعني ذلك ان المحبة ليست لها حدود ؟

٨ – الم يوحد يسوع ذاته مع كل معذبي الأرض (انظر متى ٢٥ : ٤٠) ؟ ماذا يعني هذا بالنسبة لموقفنا نحن منهم ؟ ايجوز ان يكون في ذلك الموقف شيء من الترفع والتفضل ؟ هل تقف محبتنا للمتألمين عند تقديم المعونة الفردية لهم ؟ الا تفرض علينا نضالا اجتماعياً ؟

٩ – هل تنسجم المحبة المسيحية ومتطلبات «الانسان العتيق» فينا أي مع متطلبات عبادة الأنا المتأصلة في طبيعتنا الساقطة ؟

١٠– الا ينتج من ذلك ان المحبة وليدة تجددنا باشتراكنا في القيامة التي تبث فينا حياة الله وبالتالي تجعل فينا اخلاق الله ؟(انظر يو ٣ : ١٤ ويوحنا ٤ : ٧ و ٨)

١١– اليس صحيحاً من جهة اخرى ان ممارسة المحبة ، اذ تنتزعنا من عبادة الذات ، هي طريق الى الاتحاد بالله اي الى القيامة ؟ (انظر ا يوحنا ٤ : ١٦)

ملحق

١ – كان يوحنا الذهبي الفم ، بطريرك القسطنطينية (الذي جرد دار البطريركية من كل مظاهر الترف وعاش فيها فقيرا وتوفى سنة ٤٠٧ في المنفى لتوبيخه الملوك) يخاطب بجراة اغنياء عصره ، معلنا لهم ان اهمالهم للمساكين في سبيل ترفهم هو اهمال للمسيح نفسه ، ومن اقواله :

« لقد اعطاكم الله سقفا دون المطر لا لترصعوه ذهبا في حين ان الفقير يموت جوعا **واعطاكم ملابس لتتستروا لا لتزركشوها بترف في حين ان المسيح العاري يموت بردا** • اعطاكم منزلا لا لتسكنوه وحدكم بل لتستقبلوا فيه الاخرين والارض لا لتبددوا مواردها على الجواري والراقصات والممثلين وعازفي المزمار والقيثارة ولكن لتسعفوا الجياع والعطاش ••• »

« ماذا ينفع تزيين مائدة المسيح باوان ذهبية اذا كان هو نفسه يموت جوعا ؟ فاشبعه اولا حينما يكون جائعا ، وتنظر فيما بعد في امر تجميل مائدته بالنوافل ... »

« فلا تزين الكنائس ان كان ذلك لاهمال اخيك في الشدة . هذا الهيكل اكثر جلال من ذاك »

« بينما كلبك متخم ، يهلك المسيح جوعا »

« انك تحترم هذا المذبح حينما ينزل اليه جسم المسيح ولكنك تهمل وتبقى غير مبال حينما يفنى ذاك الذي هو جسم المسيح »

يوحنا الذهبي الفم

٢ – وفي يومنا هذا ، لا تزال الروح عينها تلهم المسيحيين الحريصين على ان يعوا الانجيل في أعماقه . انهم يرون المسيح في ضحايا المظالم السياسية والاجتماعية ، وان كان مرتكبو هذه المظالم « مسيحيين » وضحاياها غير منتمين الى الايمان المسيحي . ففي سنة ١٩٥٤ ، حين كان المغربيون المناضلون من أجل استقلال بلادهم يسامون التعذيب من الشرطة الفرنسية ، القى الكاتب الفرنسي المسيحي الشهير ، فرنسوا مورياك ، الحائز على جائزة نوبل في الادب ، محاضرة أمام اثنين او ثلاثة الاف شخص في باريس بمناسبة اسبوع المفكرين الكاثوليك ، عنوانها : « الاقتداء بجلادي المسيح » ، قال فيها بالم :

« أيا كانت مبرراتنا واعذارنا ، أقول انه ، بعد تسعة عشر قرن من المسيحية ، لا يظهر المسيح ابدا في المعذب ، لجلادي اليوم ، لا ينكشف الوجه المقدس ابدا في وجه هذا العربي الذي يهوي عليه مفوض الشرطة بقبضته . الا تجدون غريبا ان لا يفكروا ابدا خاصة امام احد هذه الوجوه السمراء ذات الملامح السامية ، بالهم المقيد بالعمود والمسلم الى الجند ، ان لا يسمعوا ، من خلال صراخ ضمائرهم وانينها صوته المعبود يقول : « بي تفعلونه». ذلك الصوت الذي سيدوي يوما ، ولن يكون عند ذاك متوسلا ، وسيصرخ بهم وسيصرخ بنا كلنا نحن الذي قبلنا وربما ايدنا هذه الاشياء : « كنت هذا الشاب المحب لوطنه والمحارب من أجل ملكه ، كنت هذا الاخ الذي كنت تريد ان ترغمه على خيانة أخيه » . كيف لا تعطى هذه النعمة أبدا لاحد هؤلاء الجلادين المعمدين ؟ كيف لا يلقي جنود الفرقة احيانا سوط الجلد ليركعوا عند اقدام ذاك الذي يجلدونه ؟ »

فرنسوا مورياك

٣ ـ قلب المسيحية هو الايمان بان ابن الله اتخذ في ذاتـــه الامنا طوعا ليحررنا من الآلام · ليست المسيحية اذا ، كما يقول البعض ، ديانة تدعو الى الخنوع امام الالم والظلم · ليست المسيحية ديانة الالم ، انما هي ديانة الفداء · لا قيمة للالم في نظرها الا اذا اقتبل ، كما اقتبله المسيح ، محبة بالله وبالآخرين · المسيحي ، اذا اراد ان يسير في طريق سيده ، لا بد له ان يكون مستعدا لاحتمـال الالم والموت من أجل تحرير المتألمين والمظلومين والمستعبديـن ، لا بد له ان يناضل حتى الدم من أجل العدالة · هذا ما اوضحه الاستاذ البر لحام في محاضرة القاها في الندوة اللبنانية ضمن سلسلـــة محاضرات « العدالة في المسيحية والاسلام » · وفيما يلي نثبت مقطعا منهـــا :

« في وسط الجناح المخصص للمسيحية في متحف الالحاد في مدينة لينغراد يقوم تمثال كبير للسيد المسيح يرزح تحت وطـــأة صليب ثقيل · هذا التمثال ، يقول لك الدليل ، هو رمز المسيحيـــة التي تدعو الناس الى حمل الصليب والرضوخ للظلم والقبول بالالم والاستسلام للطغيان بانتظار حياة الآخـــرة · هـــذا التعريـــف الكاريكاتوري للمسيحية ، كم يذكرني بقول بولس الرسول « ان كلمة الصليب عند غير المؤمنين جهالة · واما عندنا نحـــن المخلصين ، فالصليب قوة الله » (اكوا : ١٨) · فالصليب ليس عنوان الـذل والخمول والاستسلام ، بل عنوان المحبة الالهية الفادية ، والتضامن المطلق مع جميع الناس ، والمشاركة التامة للرازحين تحت الظلـــم والطغيان ، والمجازفة الجريئة حتى الموت لتحريرهم جميعا · لانه ، كما تقول الرسالة الى العبرانيين : « لما كان الابناء يشتركون فـــي اللحم والدم ، اشترك هو (المسيح) ايضا فيهما لكي يبيد بموته ذلك الذي له سلطان الموت، ويعتق جميع الذين كانوا ، خوفا من الموت، يعيشون كل حياتهم تحت العبودية » (عب٢ : ١٤ـ١٥) ·

« فاذا كان المسيحي يلتزم قضية العدالة السياسية في مجتمعه، فلأنه يسير في خطى ذلك الذي التزم بؤسنا وشقاءنا اذ لبس طبيعتنا وخاض معنا ، كواحد منا ، معركة الموت والحياة ، وفتح لنـــا بصليبه طريق النصر والرجاء وهو القائل « جئت لتكون لهم حياة ، وتكون لهم اوفر » (يو ١٠ : ١٠) » ·

البر لحام : العدالة السياسية في المسيحية

(مجلة « محاضرات الندوة » · السنة العشرون ـ النشرة

١١ ـ ١٢ ـ ١٩٦٦ ص ٤٤)

٤ ـ هذا ليس مجرد نظريات ، انما هو واقع عاشه ويعيشه المسيحيون الذين ارادوا ان يكونوا امناء لرسالة سيدهم · فقد ناضل باسيليوس الكبير ويوحنا الذهبي الفم بجرأة من اجل العدالة الاجتماعية وقتل فيلبس مطران موسكو بأمر القيصر الروسي ايفان الهائل لانه كان يوبخه على طغيانه ، وفي ايامنا هذه عدد متكاثر من المسيحيين يناضلون ، محتملين احيانا الشتائم والسجن والموت ، من أجل معذبي الارض من ضحايا الطغيان السياسي او الاجتماعي او العنصري · وفيما يلي نثبت بعض نماذج فقط ـ بشكل عناوين ـ عن هذا النضال الذي توحيه المحبة المسيحية وقد نشرت هذه الوقائع في المجلة الاخبارية الفرنسية Informations Catholiques Internationales او في جريدة L'Orient اللبنانية .

ـ قس بروتستنتي يقتل في كليفلند فيما كان يحاول ايقاف جرافة كانت تعمل في تشييد مدرسة مخصصة للبيض وحدهم (I.C.I عدد ١٥ نيسان ١٩٦٤)

ـ الكنائس المسيحية في أميركا تحارب التفريق العنصري (I.C.I عدد ١ كانون الاول ١٩٦٣ و ١٥ ايار ١٩٦٤ وغيرها ··)

ـ كاهن انكليكاني ابيض يسجن في الاباما لنضاله من أجل حقوق الزنوج ثم يغتال عند خروجه من السجن · ويجرح الى جانبه كاهن كاثوليكي كان قد شاركه في نضاله وسجن معه (L'Orient عدد ٢٢ اب ١٩٦٥)

ـ مطران طولون يسير على رأس مظاهرة قام بها ٢٨٠٠ عامل في الصناعات البحرية هددوا بالطرد من عملهم (I.C.I عدد ١ اذار ٦٦)

ـ مطران تورينو يشجب علنا موقف ادارة مصانع فيات لطردها عاملين نقابيين كانا قد طالبا بحرية نقابية اوفر (I.C.I عدد ١٥ نيسان ١٩٦٦)

ـ قنبلة تلقى على مطرانية توكومان في الارجنتين فتحدث فيها اضرارا اثر قبول رئيس الاساقفة ايصال عريضة رفعتها النقابات العمالية في المنطقة الى البابا تشكو فيها الجور اللاحق بها (I.C.I عدد ١٥ اذار ١٩٦٧) ·

ـ البوليس يضايق مطران كمبرلي الانكليكاني لمكافحته التفريق العنصري في افريقيا الجنوبية (I.C.I عدد ١٥ اذار ١٩٦٧)

ـ وزارة الانباء الاسبانية توقف اصدار المجلتين العماليتين

الكاثوليكيتين الرئيسيتين : « صوت العمل » و « الشبيبة العاملة » (L'Orient ٢٨ نيسان ١٩٦٧) والسبب يعود الى كفاح المجلتين في الحقل العمالي ·

ـ ١٦٦ استاذا في الجامعة الكاثوليكية في لوفان (بلجيكا) يرفعون عريضة الى الصحافة البلجيكية يطالبون فيها بانهاء التدخل الاميركي في الفيتنام (I.C.I عدد ١ نيسان ١٩٦٧)

ـ السلطات توقف نحو ثلاثين راهبا وطالبا اكليركيا لمناصرتهم النضال الطلابي في البرازيل · اسقف سانتو اندريه يصرح بهذه المناسبة انه « سعيد لان الكنيسة البرازيلية تشارك الان في جسدها الم الفقراء والابرياء » (L'Orient عدد ٧ اب ١٩٦٧)



الصعود

« وصعد إلى السماء وجلس عن يمين الآب » .

١ – الصعود تتويج لعملية الفداء . فالمجد الإلهي ، كما رأينا ، اجتاح إنسانية يسوع لما أسلمت ذاتها بالكلية على الصليب . **هذا المجد الإلهي نفسه الذي أقام يسوع من الموت كان كفيلاً بأن يصعده إلى السماء ، أي بأن يهب لإنسانيته الاشتراك التام بالحياة الإلهية وبالسيادة الإلهيّة على جميع الكائنات** . هكذا دخلت طبيعة يسوع الإنسانية ، عندما بلغت الكمال بالصليب ، في ذلك المجد الإلهي الذي كانت طبيعته الإلهية تتمتع به منذ الأزل . هذا ما أشار إليه الرب عندما خاطب الآب قبيل ذهابه إلى الآلام قائلاً له : « فالآن ، أيها الآب ، مجّدني أنت عندك ، بالمجد الذي كان لي لديك من قبل كون العالم » (يوحنا ١٧ : ٥) . هكذا كان انحدار المسيح باختياره إلى دركات الموت طريقاً لبلوغه إلى ذروة المجد . هذا ما أشار إليه الرسول بولس عندما كتب : « الذي نزل هو الذي صعد أيضاً فوق جميع السموات ... » (افسس ٤ : ١٠) . عندما ابتعد ابن الله المتجسد بتواضعه الفائق ، إلى أبعد حد عن أصله الإلهي ، عند ذاك ، وبفعل هذا التواضع بالذات ، عاد بجسده إلى ذلك الأصل الإلهي . هذا ما أنشده الرسول في رسالته إلى أهل فيليبي : « الذي إذ هو في صورة الله (لأن الإبن صورة تامة عن لاهوت الآب) ... أخلى ذاته ، آخذاً صورة عبد ، صائراً شبيهاً بالبشر وموجوداً كإنسان في الهيئة . ووضع نفسه وصار طائعاً حتى الموت ، موت الصليب . لذلك رفعه الله وأنعم عليه بالإسم الذي يفوق كل اسم ، لكي تجثو لاسم يسوع كل ركبة ... » (فيليبي ٢ : ٦ – ١٠) .

٢ ـ تلك هي « السماء » التي صعد إليها يسوع والذي كان ارتقاؤه في الفضاء أمام التلاميذ صورة ورمزاً لها . إن عدداً من المؤمنين يخلطون بين السماء المادية و « سماء » الله . يعتقدون أن الله كائن يقبع في أجواء الفضاء العليا . ويشاركهم عدد من غير المؤمنين هذا التفكير . هكذا صرّح رائد الفضاء تيتوف أن الله غير موجود لأنه لم يجده أثناء رحلته الفضائية . هذا تصور صبياني لا يليق بالعقل الإنساني ولا بطبيعة الله . فالله ليس قابعاً في أجواء الفضاء العليا ، إنه كائن لا يحدّه مكان وهو حاضر بمعرفته وقدرته وحبه وعنايته في كل مكان . إنما الإنسان ، لكونه كائناً حسياً ومحدوداً ، لا يستطيع أن يعبر عن الله إلا بصور حسية ، ناقصة . السماء المادية تعلو عن الأرض ، لذلك اتخذت في كل الأديان صورة عن تعالي الله . عبارة « سماء » نفسها مشتقة من « سما » التي تعني علا . **السماء المادية رمز إذاً لتعالي الله.** هذا ما عبّر عنه أشعياء النبي عندما كتب: «ليست أفكاري كأفكاركم يقول الله ولا طرقي كطرقكم. لكن كما **تبعد السماء عن الأرض**، هكذا تبعد أفكاري عن أفكاركم وطرقي عن طرقكم» (اشعياء٥٥: ٨و٩). **صعود المسيح إلى السماء يعني إذاً اشتراك إنسانيته في تعالي الله ، في حياة الله ، في مجد الله ، في سيادة الله .**

٣ ـ **ولكن يسوع صعد إلى السماء ليصعد البشريّة معه .** نزعة الإنسان العميقة هي أن يبلغ إلى السماء ، أي إلى الإشتراك في الحياة الإلهية . هذا هو المعنى العميق لحنينه إلى القدرة والمعرفة والعدالة والحب والسعادة والخلود . ولكنه يطمع بأن يبلغ السماء بفعله الذاتي . فأتباع الديانات الوثنية كانوا ولا يزالون يعتقدون أن الإنسان يستطيع أن يبلغ إلى عالم الألوهة بواسطة طقوس يقيمها أو تقشفات ينصرف إليها . كذلك نرى الكثيرين من البشر في عالمنا الحديث يحلمون بتأليه الإنسانية بوسائل بشرية بحتة كالاختراعات العلمية والأنظمة

الاجتماعية . تجاه تلك المواقف تعلن المسيحية أن الإنسان لا يستطيع بفعله الذاتي أن يتخلص من حدوده ويبلغ إلى التأليه ، إنه لا يسعه بمجرد مبادرته الذاتية أن يتحرر جذرياً من الشقاء والخطيئة والعزلة والموت . السماء لا تُقتحم اقتحاماً إنما تنحدر إلينا هبة حب مجانية . **لم يكن باستطاعة الإنسان أن يبلغ إلى الله لو لم ينحدر الله إلى الإنسان ليرفعه إليه .** هذا ما عبّر عنه الرب يسوع عندما قال لنيقوديموس : « لم يصعد أحد إلى السماء إلا الذي نزل من السماء ، ابن البشر الكائن في السماء » (يوحنا ٣ : ١٣) .

طريق السماء أي الحياة الإلهية بما تتضمنه من انتصار نهائي على الخطيئة والشقاء والعزلة والموت ، إنما فتحه لنا المسيح عندما عاد بالجسد إلى أصله الإلهي . بصعوده دشّن صعودنا نحن . هذا معنى صلاته إلى الآب قبل الآلام : « أيها الآب أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني يكونون معي حيث أكون أنا » (يوحنا ١٧ : ٢٤) . بصعود يسوع بدأ تأليهنا نحن : « إن الله ، لكونه غنياً بالرحمة ، ومن أجل فرط محبته التي أحبنا بها ، وحين كنا أمواتاً بزلاتنا ، أحيانا مع المسيح... ومعه أقامنا ومعه أجلسنا في السماوات » (افسس ٢ : ٤ — ٦) .

٤ — لقد فتح لنا يسوع بصعوده طريق السماء أي طريق التألّه في الاشتراك بالحياة الإلهيّة . بقي علينا أن نسلك هذه الطريق . ولكن طريقنا لا يمكن أن تكون غير طريق يسوع ، وطريق يسوع إلى القيامة ثم إلى الصعود كانت طريق الانسلاخ المعطاء . طريق نكران الذات في اتجاه محب إلى الله والناس . لذا من أراد الإشتراك في الصعود وجب عليه أن ينسلخ ، بجهاد هو عملية الحياة كلها ، عن التمتع الأناني بخيرات الدنيا كي يتجه ، مع المسيح وبمؤازرة نعمته ، إلى فوق ، أي إلى تلك الشركة مع الله التي أعدت لنا . هذا ما علمنا إياه الرسول بولس عندما كتب إلى أهل كولوسي : « لقد قمتم مع

المسيح ، فاطلبوا إذاً ما هو فوق ، حيث يقيم المسيح جالساً عن يمين الله . اهتموا لما هو فوق ، لا لما هو على الأرض ، لأنكم قد متّم وحياتكم مستترة مع المسيح في الله » (كولوسي ٣ : ١ — ٣) .

٥ — ولكن عبارة الرسول : « اهتموا . . . لا لما هو على الأرض» لا تعني ، كما يعتقد البعض ، أنّه ينبغي للمسيحيين أن يهملوا الأرض، أن يتركوها وشأنها . هذا التفسير بالطبع مرفوض لأنه ينافي محبة القريب التي بدونها ، كما رأينا ، لا يمكننا أن نقترب من الله . محبة الأخوة تفرض أن نهتم بشؤونهم ليس الروحية وحسب بل الأرضية أيضاً (كما أشبع المسيح الجياع وشفى المرضى) ، أن نعالج إذاً من أجلهم شؤون الدنيا (بالعمل والعلم والنضال الاجتماعي مثلاً) . عبارة الرسول تعني إذاً أن نعرض عن التمتع الأناني ، النَّهِم بخيرات الأرض . من انشغل بهذا التمتع تغرّب عن الله وعن الآخرين لأنه غارق في شهوته . أما المسيحي الذي يكافح أنانية الشهوة فإنه بمشاركته صليب الرب ، يساهم في صعوده ، وإذ ينال هكذا الحياة الإلهية لا يصبح غريباً عن الناس وهمومهم بل قريباً منهم كل القرب بتلك المحبة التي فيه ، المستمدة من محبة الله لخلائقه .

الصعود لا يعني إذاً هروباً من الأرض وواجباتها ومشاكلها وآلامها . هذا الهروب ، أياً كانت مبرراته ، يدل بالعكس على أننا لم نصعد بعد ، على أننا لا نزال أسرى « الإنسان العتيق » فينا الذي يؤله راحته وطمأنينته . **الصعود هو بالعكس التزام كلّي لكل قضايا الإنسان في الأرض ، إنّه حضور كلّه حب وبذل.** ذلك أن السماء ، كما سبق فقلنا ، ليست فوق الغيوم ولكنها ، في صميم كياننا ،اشتراك منذ الآن ، في حياة الله . لقد قال الرب يسوع : « **إن ملكوت الله في داخلكم** » (لوقا ١٧ : ٢١) . وملكوت الله هو الحياة الإلهية ، هو بعبارة أخرى السماء . إذاً المسيحي الحقيقي يصعد إلى السماء دون

أن يترك الأرض ، إنه يعيش على الأرض سماوياً أي مشتركاً في حياة الله إلى أن تكتمل فيه في اليوم الأخير . هذا ما عبر عنه الرب يسوع عندما قال عن تلاميذه ، مخاطباً الآب : « إنهم في العالم ....(لكنهم) ليسوا من العالم ، كما إني لست من العالم . لا أطلب أن تخرجهم من العالم ، بل أن تحفظهم من الشر » (يوحنا ١٧ : ١١ و ١٤ و ١٥) . المؤمن المشترك في صعود ربه يتخلق بأخلاق الله « فيحفظ نفسه من دنس العالم » (رسالة يعقوب ١ : ٢٧) . ولكن الحياة الإلهية الكامنة فيه هي فيجوهرها حبٌّ وعطاء، لذلك لا يسعها إلا أن تنكسب وتنبث ما حولها ، ناشرة في الأرض عدلاً وسلاماً وفرحاً وأخاءً . هكذا يشع الملكوت من المؤمنين ليحوّل الأرض كماتخمّر خميرة صغيرة العجنة كلها : « يشبه ملكوت السموات خميرة أخذتها امرأة وخبأتها في ثلاثة أكيال من الدقيق ، حتى اختمر الجميع » (متى ١٣ : ٣٣) . بهذا المعنى دعا الرب المؤمنين به « ملح الأرض » (متى ٥ : ١٣) . الملح يختلف عن الطعام ولكنه يختلط بالطعام اختلاطاً صميمياً ليطعّمه كله . هكذا يحمل المؤمن في ذاته حياة الله التي تفوق العالم ولكنه يبثها في كل مرافق الوجود الأرضي ، في الحياة العائلية والمهنية والاجتماعية والسياسية . حبه للناس واشتياقُه إلى رؤية الملكوت قد تحقق تماماً يدفعناه إلى رسم صورته في الكون . لذلك لا يسعه إلا أن يجاهد من أجل كل حق وخير في الأرض ، من أجل العدل والسلام والإخاء بين البشر ، من أجل كرامة كل إنسان ونمو شخصيته ، من أجل تقهقر الشقاء والألم والمرض والموت .

٦ — **ولكن المسيحي يعلم أن تحوّله هو وتحوّل الكون لن يكتملا إلا عند مجيء الرب الثاني ، في نهاية الأزمنة .** بصعود المسيح ألقي نور الله في صميم الدنيا وبدأت الأرض تتحول إلى سماء ، ولكن في نهاية الأزمنة « سينفجر النهار » (٢ بطرس ١ : ١٩) ويجدّد الكون

فتصبح الأرض سماء إذ يصير الله « كلاً في الكل » (١ كورنثوس ١٥ : ٢٨) . **صعود الربّ إذاً مقدمة لمجيئه الثاني الظافر** كما يتضح من الحادثة نفسها (انظر أعمال الرسل ١ : ١ — ١١) . لذا ينتظر المؤمن هذا الكون الجديد : « إننا ننتظر ، على حسب وعده ... أرضاً جديدة فيها يسكن البرّ » (٢ بطرس ٣ : ١٣) ، هذا الكون الذي وصفه يوحنا في الرؤيا قائلاً : « رأيت المدينة المقدسة ، أورشليم الجديدة ، نازلة من السماء ، من عند الله ... وسمعت صوتاً جهيراً من العرش ، يقول : « هوذا مسكن الله مع الناس ؛ سيسكن معهم ، ويكونون له شعباً ، وهو ... يكون إلههم ، ويمسح كل دمعة من عيونهم ؛ ولا يكون بعد موت ، ولا نوح ، ولا نحيب ، ولا وجع ، لأن الأوضاع الأولى قد مضت » . وقال الجالس على العرش : « ها إني أجعل كل شيء جديداً » (رؤيا ٢١ : ٢ — ٥) . **تلك الأرض المتجدّدة التي أصبحت سماء بحضور الله الكامل فيها هي موطننا الحقيقي** . بهذا المعنى ورد في الرسالة إلى العبرانيين : « ليس لنا ههنا مدينة باقية بل إنما نطلب الآتية » (عبرانيين ١٣ : ١٤) ، وفي الرسالة إلى أهل فيليبي : « أما نحن فموطننا في السماوات التي منهـا ننتظر مخلصنا الرب يسوع المسيح ، الذي سيحوّل جسد هواننا إلى جسد على صورة جسد مجده ، بتلك القدرة التي تمكنه من أن يخضع لنفسه كل شيء» (فيليبي ٣ : ٢٠ و ٢١) .

٧ — **ولكننا ندخل هذا الكون المتجدّد منذ الآن** ، كما رأينا . بهذا المعنى قال الرب يسوع : « إنها ستأتي ساعة وهي الآن حاضرة ..» التجديد سيكتمل في اليوم الأخير ولكنه منذ الآن قد بدأ . ينبغي أن ندخل فيه منذ الآن حتى يتحقق فينا كاملاً عند مجيء الرب الثاني . المسيحي لا ينتظر مجيء يوم الرب وحسب ولكنه « يستعجل مجيئه » أيضاً على حد تعبير الرسول بطرس (٢ بطرس ٣ : ١٢) أي أنه

يبدأ بتحقيقه، بنعمة الرب، فيه وحوله، مستنزلاً على الأرض، حسب تعبير الكاتب خليل رامز سركيس، « بعض أيام السماء » . وفي جهاده، المرير أحياناً ، من أجل الحق والخير والفرح في الأرض، يشعر بثقة لا تعادلها ثقة لأنه يعلم أن جهوده لن تضيع وإن الشر والموت سيقهران نهائياً بنعمة الإله الذي تجسد وصلب وقام وصعد إلى السماء ليحرر الإنسان ويؤلهه .

اسئلة

اقرأ أعمال الرسل ١ : ١ – ١١

١ – ما معنى الصعود بالنسبة لانسانية المسيح (انظر يوحنا ١٧ : ٥) اليس هو بهذا المعنى امتداد وتتويج للقيامة ولعملية الفداء كلها ؟

٢ – ما هي العلاقة بين اخلاء الذات الذي تممه يسوع وبين صعوده ؟ (انظر فيليبي ٢ : ٦ – ١٠ وافسس ٤ : ١٠)

٣ – هل «السماء» التيصعد اليها يسوعتعنياجواء الفضاءالعليا؟(انظر اشعياء ٥ : ٨و٩)

٤ – هل يستطيع الانسان بقواه الخاصة ان يصعد الى تلك «السماء» ؟ هل اختراق الصواريخ للفضاء يحقق صعوداً كهذا ؟ (انظر يوحنا ٣ : ١٣)

٥ – الم يصبح حلمنا بالصعود الى السماء محققاً بالمسيح يسوع ؟ (انظر يوحنا ١٧ : ٢٤ ويوحنا ١٢ : ٢٦ وافسس ٢ : ٤ – ٦)

٦ – كيف يمكننا ان نسلك في طريق الصعود التي فتحها الرب لنا ؟ (انظر كولوسي ٣ : ١ – ٣) .

٧ – هل يعني ذلك انه ينبغي ان لا نكترث بشؤون الأرض ؟ هل المطلوب من المسيحي ان يخرج من العالم او ان يحفظ نفسه من شر العالم ؟ (انظر يوحنا ١٧ : ١١ – ١٥ ويعقوب ١ : ٢٧) . اذا كان الصعود اشتراكاً في حياة الله واذا كانت حياة الله هي حياة محبة الا يعني ذلك ان المؤمن الصاعد اصبح قريباً من الناس الى ابعد حد ومهتماً بشؤونهم كلها بما فيها الشؤون الارضية اقصى الاهتمام ؟ ما هي اقوال الرب يسوع التي تثبت ان المؤمن يعيش صعوده منذ الآن ويصعد معه العالم ؟ (انظر لوقا ١٧ : ٢١ ، متى ٥ : ١٣ ، متى ١٣ : ٣٣)

٨ – ما هي العلاقة بين صعود المسيح ومجيئه الثاني ؟ هل يكتمل تجديدنا وتجديد الكون قبل هذا المجيء ؟ (انظر ٢ بطرس ٣ : ١٣ وفيليبي ٣ : ٢٠ و ٢١ ورؤيا ٢١ : ٢ – ٥). اليس هذا الكون المتجدد هو وطننا الحقيقي ؟ (انظر

فيلبي ٣ : ٢٠ و ٢١ وعبرانيين ١٣ : ١٤)
٩ – هل يكفي ان ننتظر هذا الكون المتجدد ؟ (انظر ٢ بطرس ٣ : ١٢) ما معنى ان « نستعجل يوم الله » ؟

ملحـــق

المسيحي مواطن السماء التي صعد المسيح اليها بالجسد مصعدا البشرية معه ٠ ولكنه يعلم ان السماء ليست مكانا فوق الغيوم بل حياة الهية وضعت فيه ليتجدد بها ويغير بها وجه الارض والتاريخ ، مستعجلا هكذا يوم الرب الذي سيكون فيه الله « كلأ في الكل » «في أرض جديدة يسكن فيها البر» ٠ هذا ما تذكرنا به ثلاثة نصوص نثبتها فيما يلي :

١ – النص الاول من محاضرة القاها **الاستاذ البير لحام** في الندوة اللبنانية بعنوان «العدالة السياسية في المسيحية» ٠يقول فيها:

« ان المسيحي يعلم جيدا ان المدينة الفاضلة ليست من هذا العالم ٠ انها أورشليم السماوية ، الارض الجديدة ، التي يتوج بها الله عمل خليقته في اخر الايام ، ولكن المسيحي يؤمن ايضا ان تلك الارض الجديدة ،ملكوت الله ، ليست حدثا اخرويا وحسب ، ننتظره في الصلاة ، بل هي حدث دخل التاريخ البشري في يسوع المسيح وما زال حاضرا في التاريخ وفاعلا فيه كقوة بعث وتجديد وتحويل ٠ « ان كان احد في المسيح فهو خليقة جديدة ٠ الاشياء القديمة قد مضت ، هوذا الكل قد صار جديدا (٢ كو ٥:١٧) ٠ لذلك فالمسيحي ، وقد اضحى عضوا في تلك الخليقة الجديدة اذ خبر موت الصليب وقوة القيامة ، مدعو الى تطوير المجتمع وتغيير وجه التاريخ » ٠

البير لحام

(عن مجلة « محاضرات الندوة » ٠ السنة ٢٠ النشرة ١١ ، ١٢ ، ١٩٦٦) ٠

٢ – النص الثاني **للفيلسوف الفرنسي المسيحي عمانوئيل مونييه** مؤسس مذهب الشخصانية ٠ يظهر فيه ان رجاء السماء يدفع الى تحويل الارض لان الآخرة لن تكون ابادة للكون بل تتويج للتجديد الذي اطلقه المسيح فيه والذي لا بد للمسيحيين ان يساهموا به منذ الآن :

« ... ان الرجاء المسيحي الحقيقي ليس هروبا . رجاء الآخرة يوقظ مباشرة ارادة تنظيم الدنيا . ان كل امثال الكتاب ، مثل العذارى العاقلات والعذارى الجاهلات ، مثل المدعو الى العرس الذي لم يرتد لباس العرس ، مثل الوزنات ، وامثال اخرى كثيرة ايضا ، كلها تنصب في هذا الموضوع : اما ان تكون الآخرة منذ الان حاضرة بينكم وبواسطتكم ، واما لن تكون لكم ابدا . تذكرون انه في اللحظة التي كان الرسل فيها ، بعد ان شاهدوا المسيح ينطلق في الغيوم ، لا يزالون رافعين رؤوسهم بذهول الى السماء ، اقترب منهم رجلان بلباس ابيض وقالا لهم ما معناه « ما بالكم لابثون هنا وانوفكم في الهواء ؟ الذي ذهب سوف يعود . فعملكم اذا هو عند اقدامكم » . هكذا فبالنسبة للمسيحي الذي ينتظر الآخرة ، ليست فكرة نهاية الازمنة فكرة ابادة ، ولكنها انتظار استمرار واكتمال » .

Emmanuel Mounier : La Petite Peur Du XXe siècle

٣ ـ أما النص الثالث ، فهو **للاهوتي البروتستانتي السويسري الشهير كارل بارت** . فيه يظهر أن ثقتنا باندحار قوى الشر والموت نهائيا في يوم الرب تمدنا بالشجاعة اللازمة للنضال من أجل بناء عالم أفضل ، لاننا نعلم ان جهودنا لن تضيع وان للتاريخ الانساني معنى :

« اذا كنا نؤمن بان للحوادث وللتاريخ معنى ، وكنا نؤمن ايضا بالتطور والثورة ، وباصلاح المجتمع وتجديده ، بامكان الاخوة في الارض وتحت السماء ، فلأننا ننتظر شيئا أفضل ، اعني السماء الجديدة والارض الجديدة . واذا كنا نكرس انفسنا ، بكل قوانا ، لاعمالنا اليومية مهما صغرت ، واذا كنا نعمل بلا هوادة لنبني (بلادا) جديدة ، فلأننا ننتظر اورشليم الجديدة النازلة من عند الله . واذا كانت لنا الشجاعة ، في عالمنا ، لنحتمل القيود والعقبات والمثالب ، لا بل اذا كانت لنا الشجاعة لتحطيمها ايضا ، فلأننا ، سواء احتملناها او حطمناها ، نؤمن بالتدبير الالهي الذي يقضي بدحر آخر الاعداء واقوى القيود ، اعني الموت ذاته » .

كارل بارت

فهرس المحتويات